

رصاصة الرحمة

مجموعة قصصية

تأليف

نصر سليمان





رئيس مجلس الإدارة

د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

اسم الكتاب: رصاصة الرحمة

رقم الإيداع: ٣٥٠٧ / ٢٠١٤

تدمك: ٩ - ٧٩٥١ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

٢٠.٥ / ١٤.٢٥ سم

عدد الصفحات: ١٢٤ صفحة

القاهرة: الطبعة: الأولى ٢٠١٤

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهداء

إلى النفس البشرية التي تملك ذات المشاعر والأحاسيس..
وتفاوتت درجاتها من إنسان لآخر.. فهو تملك كيفاً لا كمّاً.. وبقيت
عليها محاولة ضبط أوتارها.. كمن يعزف مقطوعة موسيقية.. يضيف
إليها.. ويحذف.. ليحافظ على إيقاعها.. حتى تنسجم نغماتها
وتنسب مع اللحن الإنساني.. لإبداع سيمفونية كونية رائعة.

مقدمة

رصاصة الرحمة.. مجموعة قصصية تضمنت في مجموعها خمس قصص.. الأولى منها قصة طويلة تتكون من خمسة فصول وهي قصة بداية ونهاية.. وقد استوحيت أحداثها من واقع الحياة.. وعاشت أبطالها وتفاعلت مع مجرياتها.. ووقفت طويلاً أمام بعض تفاصيلها لألتقط الأنفاس.. فقد تلاحقت بأشخاصها مصائب القدر.. وضربت سفينتهم أمواج عاتية.. وتعالق أناتهم كأنين الرياح في بحر الظلمات.

وقد اجتهدت أن أضيف إلى قصتنا شطحات من الخيال لأضفي على أحداثها المزيد من الثراء.. غير أن الخيال عجز عن تجاوز الواقع... لذلك أزحت هذا الفكر عن خاطري.. وعمدت على سرد الأحداث بنظرة شاهد يروى واقعا أغرب من الخيال.

والقصص الأربعة الأخرى.. قصص قصيرة.. استلهمت مادتها من أرض الواقع.. وأفضت عليها بعضاً من خيال الكاتب.. وحاولت أن أخوض في أغوار النفس البشرية لأبطالها مع اختلاف ثقافتهم وطبيعة حياتهم.. غير أنني أدركت أنني أبحر في بحر بلا قرار.. وأن نفوسنا ما هي إلا دوامات قد تأخذنا للقاء حيناً.. وتطفو بنا حيناً آخر.

الجزء الأول

بداية بلا نهاية

الفصل الأول

كنت قابعا في شرفتي في ليلة شتوية نسمايتها باردة.. وزخات
مطر تضرب حولي سياجا يزيد من وحدتي.. أرتشف قهوتي.. وأنفث
دخان سجائري.. تدثرنى ثياب صوفية.. دفئها يسرى في أوصالي..
يدغدغ إحساسى ومشاعرى.. وقشعريرة تدب في جسدى.. ونشوة تثير
أشجانى.. تجتاحنى وتهز أركانى.. توقظ قلبى من غفوته.. وتبعث في
نفسى الحياة.

أقلب بصرى في سماء تحجبها سحب سوداء.. يتخللها وميض برق
يخطف الأبصار.. وهزيم رعد يرجف الأوصال.. وقمر ينساب متسللا..
بازغا بين الظلمات.. يلفظ أنفاسه تحت وطأة غيم الشتاء.. يشع ضوءه
على استحياء.. ككهل ذهب صباه.. فتشبهت بأحلامه.. فانفض يجدد
شبابه ويزيح عن كاهله ثقل أيامه.

أتأمل دخان سجائري.. يرسم في الأفق لوحة تهتز إثر موجاته.. تتكامل
معالمها وسرعان ما تتلاشى.. تتلوها موجات تنقش صوراً تترنح وتتداخل..
وتتسارع أنفاسى تبث دخاناً يتصاعد يزيع عن كاهلى حملا وحمما يضيق
بها صدرى.. وسرعان ما ينقش مختفيا وكأنه طائر أطلق سراحه من محبسه.
تغيب معالى وتلتهمها سحابة دخان تلفنى.. يقبع «أبو الهول» فى
مجلسه.. شارد الذهن.. أتأمل عهدا مضى.. وحاضرا بين يدي.

انتفاضة قلب تنتشلى من زمن مضى.. وأيام خبا بريقها.. وتلقى بى
فى كتاب حياتى.. أقلب صفحاته.. أتأمل سنين من عمرى تجاوزت

الخمسين.. أتشبث بقطار حياتي.. أدرك بعض محطاته.. قبل أن يلفظني وينهى رحلته.

عصيان وتمرد.. وإزالة صدأ سنين.. تنطلق الروح جامحة.. شيطان «علاء الدين».. كسرت راية بيضاء.. ونزعت من قلبي فتيلاً.. تتسارع دقاته «قنبلة».. قابلة للتفجير.

وزخات مطر على وريقات شجر أضناها خريف.. تزيح غبارها.. وتقبل شمساً تبعث حياتها.

أزحت عن كاهلي غيوم شتاء تثقلني.. وغطاء يحجبني عن عالم حي زاخر حولي.. ونفضت أفكاراً خيم ظلالها على عقلي.. تسرى سمومها تصيب قلبي.

ركنت للاستسلام وتيبست أوصالي.. ودرت في فلك الأيام تلفني حتى انزويت.. تركت ربيعا خلفي وسارعت الخطى لليالئ شتاء باردة.. كادت تودي بي وتقذفني خارج زماني ومكاني.

تسارعت دقات قلبي.. ودفء يسرى في جسدي.. وتمرد نفس تتنفض.. وحياة تدب في روحي.

لحظة بعث كسرت قيودي.. ونزعت أغلالى وأطلقت ماردا داخلي.. قيد زمنا.. وأوصدت أبوابه.. ثار محطما جدرانها وانطلق من محبسه غير عابئ نداءتى.. محررا ما تبقى من قلب نابض ونفس تواقه وروح وثابة.

ويتمرد داخلي الإنسان.. ينزع ملابس أثقلتني.. ويطفئ سجائر غيبنتي.. ينقشع دخانها.. تتجلى ملامحي.. وسماء تصفو يسطع قمرها. أفقت أبحث عن ذاتي حياتي.. حب أفنقهه ماء أروى به زعاً جفت جذوره وذبلت أوراقه.. أتشبث بقطار مجرى وأحاول أسرع خطواتي.

أسرعت أستدعى الحقيقة من عالم الخيال.. وأتواصل مع أفكار
وأشخاص تتوارى خلف شاشات الحاسوب.. ربما أدرك ونيس وحدتى..
وجليس صحبتى وأجد منشدى وغايتى.. وكان للقدر تدابيره وقادنى
إلى موعد كنت قد هيات نفسى لاستقبال موجاته المتدفقة وأحداثه
المتلاحقة.. وحياة زاخرة بدأت منذ اللحظة الأولى التى التقيت فيها
ناريمان فى محادثة عبر شاشة الحاسوب.. استمرت دقائق معدودة
كانت «قبلة حياة» أنعشت قلبى وأيقظت مشاعرى.

فقد تعارفنا وتلاقت أرواحنا وانجذب كلانا للآخر.. وتسارعت دقات
قلوبنا.. وتفتحت حواسنا.. وربط الحب سريعا بين قلوبنا.. وكأنه ينبوع
ماء يروى أرضاً جرداء.. فتنطلق بذورها خضراء يانعة.. وتتفتح أزهارها
فيفوح عطرها.

دامت لقاءاتنا.. واستمرت أحاديثنا.. تجاذبنا معا تفاصيل حياتنا..
تشاركنا خطب أيماننا.. تباكيننا.. تضاحكننا.. حلمنا.. وحلقت آمالنا.
ومرت الأيام سريعة.. تقربنا.. توحدنا.. تجمع بين قلوبنا..
تعودتها.. اعتدت ضحكاتها.. أدمنت مناجاتها.. آنست وجودها..
قدست مواعيدها.. تعبدت فى محرابها.

تدفقت مشاعرنا.. تألفت أرواحنا.. تعانقت نفوسنا.. ورسول الحب
والشوق يطوف بيننا.

حبيبتى فى ريعان شبابها وربيع عمرها.. وتسكن فى بلد عربى بعيد
عن بلدنا ومسافات طويلة تفصل بيننا.. تتخللها بحار وأنهار.. وصحراء
شاسعة وجبال شامخة.. دارها عن عيني بعيدة.. وهى فى قلبى قريبة.

وسريعا تطورت علاقتنا وتوطدت صداقتنا.. وأدركنا أننا تعارفنا
وتلاقينا لنكمل معا رحلتنا ونتوج معاً حيناً.. ونقبض بأيدينا سعادتنا..
فرحنا.. وشكرنا قدرا جمع بيننا.. وبارك لقاءنا.
وشرعنا نخطط لأيامنا.. ونرسم واقع حياتنا.. ونذلل عقبات في
طريقنا.. ونفند مشاكل تعترضنا.

وتغلبنا على صعاب كادت تطيح بأحلامنا.. واستطعنا أن نمهد
لحياتنا.. وعزمنا على استكمال مشوارنا.. وحب يجمع بيننا.. يتوجه
زواج يحقق حلمنا.

وعكفنا نضع اللمسات الأخيرة للوصول بسفينتنا إلى مرساها.. وتحقيق
أمانينا وغاياتنا المنشودة.

وفى خطوة مفاجئة قررت ناريمان زيارة بلدنا فى رحلة قصيرة
تتعرف خلالها على ثقافتنا.. وعاداتنا.. وتقاليدنا.. وأيام تجمعنا معاً..
نعيش واقعا حلمنا به كثيرا.. ولقاء يجمعنا.. تتشابك أيدينا.. وتتعانق
أعيننا.

سعدت بقرارها.. وانتظرت حضورها.. وعددنا الأيام.. واحتسبنا
الساعات.. وأعددنا أنفسنا للقاء حلم وحياة.

أردنا.. وأرادت الأقدار.. وكان لها ما أرادت.. فقد انحرفت بنا
عن مسارنا.. وبدلت أمورنا.. وأطفأت بهجة نفوسنا.. وجعلت الأحزان
رفيق دربنا.

أجتز ذكرياتي ويكاد يقتلنى الندم أن شجعتها يوما على قرار سفرها..
ولكن ماذا يفيد الندم مع تصاريف القدر؟؟

أرادت ناريمان أن ترتب زيارة إلى مصر حتى تقف على معالم وطننا وطبيعة شعبنا ونتناقش معاً فى أمور حياتنا ومستقبل علاقتنا وأيامنا القادمة.. وبقي تحديد موعد رحلتها قبل حلول امتحاناتها فى عامها الأخير بكلية الطب التى تدرس بها حيث لم يتبق سوى شهرين أو أقل على حصولها على شهادتها وإقامة حفل تخرج تتوج به حياتها الدراسية. ناريمان من عائلة طبية.. يمتهن كثير من أفرادها مهنة الطب بتخصصاته المختلفة.. ولم يشذ عن العمل فى هذا المجال سوى «ياسين» شقيقها الأكبر الذى تولى أمرها بعد وفاة والديها.. فقد فضل دراسة القانون و تدرج فى سلك القضاء حتى وصل أعلى مراتبه.. ثم كلف بالعمل محافظا لعاصمة بلدهم التى يعيشون بها.

عكفت ناريمان على إعداد برنامج لزيارتها ووضعت على أولوياتها التعرف على بعض أفراد عائلتى اللذين تعرفت عليهم..وتبادلت معهم بعض المكالمات التليفونية وباركوا خطواتنا.

وقد لاقى فكرة سفرها ترحاباً من جميع عائلتها وخاصة شقيقاتها.. وقليل من أفراد عائلتها ممن تثق بهم وتؤمنهم على أسرارها ويعلمون بعلاقتنا ويعرفون قصد رحلتها الحقيقي.. وأيضاً ممن ليس لديهم علم بهذه العلاقة ويظنونها رحلة عادية تماثل رحلاتها الكثيرة حول العالم للتنزه واكتساب المعرفة.. حيث اعتادت ناريمان السفر وزيارة البلدان المختلفة.. وتجيد بجانب لغتها العربية عدة لغات مختلفة منها الفرنسية التى تتحدثها بطلاقة تأثراً بفترة الاحتلال الفرنسى لبلدهم الذى استمر ردحا من الزمن كان كفيلاً بصنع ثقافتهم بصبغة أهل بلد الاحتلال والتحدث بلغتهم والتأثر بثقافتهم.

ولم يتبق سوى تحديد موعد وصولها مصر ذلك اليوم الذى انتظرناه طويلا.. وعبرت ناريمان عن سعادتها وفرحتها بهذا اللقاء المرتقب.. الذى تعده بداية لحياة جديدة ومرحلة تختلف عن سابق حياتها.

تناقشنا كثيرا حول خططنا لهذه الرحلة.. وعمدنا وضع برنامج يومي يتيح لنا الاستغلال الأمثل لهذه الأجازة القصيرة التى لن تتجاوز سبعة أيام.. حاولنا أن نجعل منها حلما يخلق بنا فى سماء الواقع.. وأملا يدفع بنا إلى آفاق المستقبل..

رسمنا معاً تفاصيل يومياتنا فى مصر وزيارتنا لمعالمها السياحية.. ومزاراتها الثقافية.. وأخذنا ندون كل ما يطرأ لنا من أفكار تضيف لهذه الزيارة بعدا من البهجة والسعادة.. وتجاذبنا ضحكات ونظرات ذات مغزى.. وحلقنا سويا فى عالم من الأحلام والآمال تتوق لها نفوسنا وأرواحنا.

وجاء اليوم الموعود فى اتصال هاتفى من ناريمان تخبرنى فيه أنها فى طريقها لمكتب السياحة لحجز رحلتها المرتقبة وسوف توافينى بعد برهة من الوقت بتحديد موعد سفرها.. وحمل لى صوتها فرحة عارمة وسعادة غامرة.. تخلله كلمات رقيقة عبرت بها عن حبها وحنينها وشوقها إلى رؤيتى.

سعدت بمكالمتها وبادلتها فرحا وحباً.. وتواعدنا على محادثة تخبرنى موعد سفرها.. شرعت أتأهب لحضورها وأستعد لاستقبالها ولقائها وتحقيق الحلم الذى طال انتظاره.. وها قد قارب أن يصير واقعا. شغلت فكرى ببعض أمور حياتى وانتظرت سماع مكالمتها لتخبرنى بموعد رحلتها.. ومضت ساعة وساعات ولم أسمع صوتها.. انتابنى

خوف وقلق وألمت بى بعض الهواجس التى كدرت صفوى.. وحاولت أن أتمس لها الأعذار.. وإن كنت قد حملت لها بعض اللوم أن تركتني نهبا للهواجس والظنون.. ولم تطمئني بمكالمة تزيح حمل صدرى.. ثم سلمت أمرى وحاولت أن أتغلب على هواجسى وظنونى وخوف بات يتملكنى وأسئلة كثيرة تراودنى.

مضى يوم وأنا على هذه الحال لا أجد ردا على اتصالاتى.. ولا أسمع خبرا يثلج صدرى.. زاد خوفى واشتد قلقي.. فجوالها دائما مغلق.. وغائبة عن موقع التواصل الاجتماعى الذى اعتدنا أن نلتقى ونتكلم ونتحاور ونبت أشواقنا ونتبادل أحاسيسنا معا من خلال صفحتنا التى شهدت ميلاد قصة حبنا.

وبينما أنا غارق فى أفكارى وتساؤلاتى تلقيت مكالمة خارجية على جوالى.. انتبهت لها بكل حواسى.. ورقص قلبى فرحا.. فقد جاء الغيث وهامى ناريمان تهاتفنى.. ومكالمة تحمل بشرى وتبدد خوفى وقلقى.. وبكل حب وشوق أسرعت أجيبها ودقات قلبى تسابقنى وكلى آذان تحتضن كلماتها. غير أنى فوجئت أن التى تحادثنى شقيقتها ليلى.. وصرخات تسبق كلماتها وبكاء ونحيب يحشرج صوتها.. ويتخلل اسم ناريمان حديثها.

أدركت من أول وهلة أن مصيبة ألمت بها.. وأمرأ جلالاً قد أصابها.. فزعت أستفسر عن خطبها وأتساءل عما حدث لها؟.

تسارعت أنفاسها بكلمات مبعثرة كأنها جمرات تحرق قلبى.. فقد علمت من حديثها أن ناريمان وقعت ضحية حادث مروع نتج عن تصادم

حافلة مسارعة بسيارتها فى أثناء قيادتها وتوجهها لشركة السياحة لإتمام حجز رحلتها.. وأن الحادث أصابها إصابة بالغة وغيبها عن العالم فى غيبوبة عميقة أرقدها بين الحياة والموت لاتدرى من أمرها شيئاً.. وصمت مهيب يخيم على وجوه أطبائها.. ودمع ينساب من أعينهم.. بعدما بذلوا محاولاتهم لإنقاذها.. ولا مجيب عن أسئلة أهلها الحائرة.. ولسان حالهم يطلب الدعاء لها أن يلطف الله بها.



الفصل الثانی

كلمات أطلققتها ليلی.. رصاصات أصابت قلبي.. لم تجلُ يوماً
بخاطري.. ولم تصادف أسوأ ظنوني.. صدمني بكاؤها ونحيبها.. ورعشة
فى صوتها المتختم بالأحزان والآلام.. لم أدرك الحدث بقدره.. فقد فاق
قدراتى.. ولم أع حجم الكارثة وأبعادها.. وآثر عظمى الهروب والانزواء
وغاب عن مواجهة الواقع المرير الذى ساقه القدر.

ناريما حبيبتى التى انتظرت سماع صوتها لتتنقل لى بشرى سارة
تسعدنى وأطرب لها.. غائبة عن عالمنا بعد أن سقطت ضحية حادث
مروع خلف قتلى وجرحى وكادت تفقد فيه حياتها.. هامة.. تقاوم موتا
يجذبها.. وتتشبث بحياة تتسرب من بين يديها.

تلقت خطبها.. واشتعل إحساسى وتفجرت مشاعرى.. وانهمر على
إثره دمعى.. غزيراً متدفقاً.. يلهب وجهى.. كسيل حارق يلفحنى..
ينتشلنى من زهول يتملكنى.. وأدرك واقعا صار قدرى.. ويثور بركان فى
قلبي.. يقذف حمماً تمزق أحشائى.. وتهتز الصور فى عيني.. وأترنح
جسداً متهاكاً أنهكته أحزانه وصرعه القدر.

أيقنت أن من المصائب ما يفوق قدراتنا.. وإن تعاضمت أحزاننا فهى
ضئيلة فى محرابها.. وبلاغة كلماتنا وإن تجلنت لا تفيها جلالها.. وأن للأقدار
قسوة تئن منها الجبال.. وتحطم قلوب الرجال.. ويشيب من هولها الولدان.
أدركت أن الواقع قد تغير.. وأن حياتى قلبت رأساً على عقب..
وخرجت الأمور عن سيرها الذى قدرناه.. وأصبح حتماً على أن أتقبل
الوضع الراهن.. وأتفاعل مع معطياته.

عكفت على مداومة الاتصال مع ليلى للوقوف على أحدث المستجدات ومتابعة الحالة الصحية التى آلت إليها ناريمان.. وحاولت أن أدرأ عن نفسى إحساس فراقها الذى بات يلزمنى ويسيطر على فكرى.. وكان يخالجنى قبل كل محادثة إحساس رجفة تجتاح جسدى.. وقبضة تعصر قلبى.. فقد كنت أتوقع الأسوأ دائماً.. وأخشى فى كل مكالمة أن أسمع نعيها.. فقد أدركت من متابعتى لحالتها الصحية مدى خطورتها ودقتها.. وأيقنت أن علاجها لن يكون سريعاً.. وشفاءها ليس أكيداً.

ظلت ناريمان بالعناية المركزة فى المستشفى الجامعى الذى طالما تلقت محاضراتها فى أقسامه المختلفة.. وسهرت على مدار سنوات دراستها ليلالى طوالاً تطيب وتعالج مرضاه الكثيرين.. وها هى ترقد اليوم غائبة عن عالمنا.. ومرضها يبكونها وتنساب دموعهم حزناً عليها.. فقد ألفتهم وألفوها وأحبتهم وأحبوها وشاركتهم آمالهم وأحلامهم.. والكثير منهم يعدونها أختاً لهم وصديقة غالية على قلوبهم.. وهام اليوم يبادلونها مشاعر صادقة.. ودعوات حارة.. وأسأتذتها يلتفون حولها لبذل جهودهم فى محاولات يائسة لانتزاعها من براثن الموت.

تمر الأيام بطيئة.. وهواجس ومخاوف تزيد من إحساسنا برتابتها مع كل لحظة تمر على ناريمان وهى غائبة عن وعيها.. بعد أن أصبحت حياتها معقودة على الإفاقة من غيبوبتها.. وباتت أنفاسها مرهونة بمعدات وأجهزة طبية عالقة بجسدها تكاد تخفى معالمها.. ونكتم أنفاسنا ترقباً مع أنفاسها المتقطعة.. داعين الله أن تتجاوز محنتها وتسترد عافيتها.

تتعاقب الأيام ويمضى أكثر من أسبوعين وناريمان مازالت على حالتها والغيبوبة تحجبها عن عالمنا.. وبدأ اليأس يدب فى نفوس أطبائها.. وتملكتهم الحيرة والخوف على حياتها.. وتباحثوا كثيرا فى أمرها.. ثم أجمعوا أخيرا على ضرورة علاجها خارج البلاد.. ومتابعة حالتها فى أحد مستشفيات الدول الأوروبية المتخصصة حيث تتوفر الإمكانيات الأحدث والكفاءات الأكثر خبرة.. ولكن سرعان ما تراجعوا عن قرارهم خوفا على حياتها وعدم مقدرتها على تحمل مشقة السفر وتبعات رحلة العلاج.. ولم يتبق لنا فى هذه الأجواء اليائسة إلا انتظار رحمة الله.. عسى أن تكون قريبة.

بينما أتوقع داخل ذاتى غارقا فى أحزان تعترضنى.. ويجتاحنى يأس ورجاء.. طاف خاطر فى ذهنى.. وتملكنى شعور خفى أن أهاتف ناريمان.. عل صوتى يصل وجدانها.. فإن للحب قوة وحياء. وعسى أن تكون كلمتى حافزا ودافعا لها تنتشلها من غياهب الظلمات. وشرعت أضع خاطرى حيز التنفيذ.. وناجيت ناريمان بأشواقى وأشجاني.. وذكرتها بأيامنا وأحلامنا.. حادثتها والدمع يسابق كلمتى.. وابتهلت إليها أن تزيح عنها شبح الموت وتتشبث بالحياة.. وتعود إلينا بسمه تضىء أيامنا وليالينا.

تعبدت فى محراب حبها.. عاكفا أناجيها.. أبثها أشواقى ورجائى.. وأشعر بحرارة أنفاسها مع آلاف الأميال التى تفصل بيننا.. ويحدونى الأمل أن تستجيب لندائى.. انتبهت فجأة على صرخات فرح.. وابتهالات شكر وحمد لله.. وضجيج من السعادة تمتزج معالمة..

ويصل إلى سمعى القليل من كلمات المحيطين بها التى استطعت أن أتبين معانيها.. وكأنها بلسم طيب الجراح وأثلج صدرى وجعلت الحياة تسرى فى جسدى.

فقد «انسابت دموع ناريمان وتحاول جاهدة أن تتمتع ببعض الكلمات لحظة فرح أزاحت عن قلوبنا أحزان أيام طويلة.. حمدنا الله وسجدنا شكرا أن استجاب لدعواتنا.. وحقق أمنياتنا.. وها هى بداية الغيث و «قبلة الحياة» تعود بناريمان من عالم المجهول إلى واقع الحياة.. وترقص قلوبنا طريا فقد أدبر شبح الموت وأقبلت بهجة الحياة.



استطاعت ناريمان أن تتشبث بالحياة وتتغلب على غيبوبة استمرت معها تسعة عشر يوما كادت توردها الهلاك وتسلبها حياتها.. ورويدا رويدا بدأت تتعافى وتسترد صحتها وتعى الواقع من حولها.. فقد استعادت وعيها واستردت ذاكرتها.. ولم يعكر صفوها سوى بعض الآثار الجانبية التى تؤلم رأسها وتصاحب الشفاء من غيبوبة قاتلة.. وآلام كدمات حادث موت أصابت جسدها.

شكرنا الله أن منّ بفضلها عليها بالشفاء وتجاوزت المرحلة الخطرة.. لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها.

أفقنا من نشوة سعادتنا بنجاتها وزوال الخطر على حياتها.. على مصاب جلل ألم بها من جراء الحادث الذى تعرضت له.. فقد أصيبت على إثره إصابة بالغة فى ظهرها تطلبت إجراء عدة عمليات فى عمودها الفقرى بعد إصابتها بعدة كسور فى فقراته المختلفة.. فنتج عنها شلل

أصاب نصفها الأسفل لتفقد معه قدرتها على الحركة.. ويجمع أطباؤها على عدم قدرتها على السير مرة أخرى مع الجرم ببقائها قعيدة أيام حياتها القادمة.

صارحنا أطباؤها بعد أيام قليلة من الحادث وفى أثناء غيبوبتها بإصابتها بحالة الشلل النصفي.. وفقدانها القدرة على الحركة.. ولم ندرك آنذاك قدر الخطب الذى ألم بها.. ولم نعطه حقه من الاهتمام.. فلم يكن يشغل بالنا سوى خشيتنا من فقدانها.. وشغلنا خوفنا على حياتها عن كل ما عداه خاصة أنها كانت تنافح الموت فى كل لحظة تمر بها.. وقد توارت مصيبة الشلل الذى أصابها ولم يدر فى خلدنا حجم هذه الكارثة التى حلت بها.. فالمصائب أحجام وأوزان ومع مصيبة الموت تهون أعظم المصائب.

أدركنا بعد اطمئناننا على زوال الخطر على حياتها.. قدر المصاب الذى ألم بها.. والذى ربما يقضى على آمالها وأحلامها.. وتحاشينا جميعا نقل الحقيقة إليها ومصارحتها بمصابها.. فقد خشينا ردة فعلها وتخوفنا من محاولتها إنهاء حياتها فى لحظة يأس تلم بها.. خاصة أنه لم يكتمل بعد شفاؤها.

حالة من الحزن والألم تسيطر على جميع من حولها.. والوجوم يكسو وجوه عائلتها.. ولحظات قاسية يسوقها قدر بلا قلب.. أسقط فرسه جامحة فى سباقها بحلبة الحياة.. وعرقلة توقعها قبل نهاية السباق ونيل جائزته. محنة قاسية.. استطاعت ناريمان أن تجتازها.. وتقبلت وضعها الجديد الذى شاء قدرها اختبار صلابتها وقوة إيمانها.. وقد فاجأتنا

جميعا بقدرتها على التغلب على أحزانها وامتصاص صدمة مرضها .. وحاولت التكيف مع ظروف حياتها.. والمصاب الذى ألم بها.. وتجمع حولها الأهل والأصحاب يحيطونها بحب ودفء ويعضدونها فى محنتها.. والتف حولها أساتذتها وزملائها يساندونها ويشدون من أزرها.. حتى استطاعت بإيمانها وصلابة إرادتها الخروج من أزمتها وتجاوز محنتها بأيسر مما قدرنا.

بدأت ناريمان سريعا تستعيد لياقتها.. وتحاول أن تدرك ما فاتها.. فعكفت على دراستها ومحاضراتها تنهل منها ما تستطيع تحصيله استعدادا لاجتياز اختبارات عامها الأخير فى كليتها.

توالت الأيام بطيئة.. وسارت الأمور سيرها الرتيب.. وبدأت دوامة الحياة تأخذ الجميع كل فى فلكه يدور.. وتحاول ناريمان أن تتوهم اعتيادها وضعها الجديد.. وتتناسى ما ألم بها وترتكز فكرها فى دراستها وامتحاناتها.. مع مسحة حزن تكسو وجهها.. وانكسار أصاب قلبها.

دارت الأيام سريعة حتى جاء يوم يحمل لنا بشرى لم نتوقعها ولم ترد بخلدنا.. فقد أراد القدر أن يخفف من قسوته.. ويلطف بنسمة باردة لفحة حرق قلوبنا وألهب صدورنا.. فقد أخبرتنا إدارة المستشفى أنها استعانت بعدد من أطباء دولة أوروبية ممن يمتلكون خبرة وكفاءة عالية فى جراحات العمود الفقرى.. وأفادوا بعض اطلاعهم على أشعة ناريمان وتقاريرها الطبية.. إمكانية شفائها بعد إجراء جراحة بسيطة تستكمل الجراحات التى أجريت لها.

استقبلنا هذه الأخبار بفرحة عارمة وسعادة غامرة يشوبها خوف وشك من لا يملك اليقين.. وتقرر إجراء العملية فى أسرع وقت وفقا

للتقارير الطبية والحالة المرضية التي تستدعى التدخل السريع قبل أن يضع الأمل ويصبح شفاؤها سراباً.. وسريعا أنهيت الإجراءات واتخذت الخطوات اللازمة ودخلت ناريمان حجرة العمليات.. والتف حولها فريق الأطباء.. وانتظرنا جميعا وحبسنا أنفاسنا.. وتعلقت قلوبنا برحمة الله.. وارتفعت أنظارنا للسماء.. ولهجت ألسنتنا بالدعاء.

وتشاء إرادة الله أن تتم العملية بنجاح.. وتستطيع ناريمان أن تحرك قدميها بعد ساعات طويلة قضيناها بين ترقب ودعاء.. وتجتاحنا فرحة غامرة.. ونسجد لله شكرا أن استجاب دعاءنا.. وشاءت إرادته أن تتبدل أحزاننا.. وتجازى ناريمان خيرا على صبرها وإيمانها.

وتمر الأيام يوما بعد يوم.. وتستعيد ناريمان صحتها رويدا رويدا.. وتخطو أولى خطواتها.. تحيطها فرحة الأهل والأصدقاء.. يساندها أن تذل خطواتها «عكاز» تتكى عليه فى خطواتها.. على أمل أن يكتمل شفاؤها وتعود سيرتها الأولى بعد شهر أو شهرين على الأكثر.

بدأت الحياة تأخذ سيرها المعتاد.. وعمدنا أن نسدل ستارا على الأحداث الحزينة التي عشناها جميعا فى الأيام السابقة.. وتأهبت ناريمان لأداء الامتحانات التي لم تبق عليها إلا أيام قليلة.. والتف حولها أساتذتها وزملاؤها لمساعدتها على تحصيل ما فاتها.. وشرح ما استعصى عليها فهمه.. حتى أصبحت على أهبة الاستعداد وتيقنا جميعا من قدرتها على اجتياز النجاح.

اقترحت شقيقتها الكبرى عائشة إقامة حفل صغير فى منزلهم احتفالاً بشفاء ناريمان ومحاولة لإضفاء السعادة والبهجة عليها بعد ما

تكبدته من معاناة الأحداث السابقة.. ومكثها في المستشفى لأكثر من شهرين متتاليين بين جراحات وعلاجات وأجواء مرضية.. وشرعت في تنفيذ فكرتها بدعوة الأهل والأصدقاء للاحتفال معا لبث روح جديدة وشحنة إيجابية تحملها على الاستمرار ومواصلة مشوار النجاح.. وتزيح عن كاهلها شوائب حزن وألم خلفتها الأحداث الماضية.

أقيم حفل صاحب سعد فيه الجميع وتألّق الأصحاب والأصدقاء.. وجذبت ناريمان أنظار الجميع بجمالها وأناقتها وضحكاتهما التي ملأت الأجواء بهجة وفرحاً.. فقد كانت ناريمان عروس هذا الحفل.. تمتلئ طاقة وتشع أملاً.

حاولت مشاركتها فرحتها رغم المسافات التي تباعد بيننا.. وداعبتها ببعض الكلمات التي تعبر عن حبي لها.. ومدى شوقى إلى رؤيتها.. وتبادلنا بعض الأحاديث القصيرة.. وجددنا آمالنا وأحلامنا في مستقبل تملأه السعادة والهناء.. وتمنيت لها سهرة ممتعة وحفلاً بهيجاً.. مع وعد بلقاء عبر الهاتف صباح اليوم التالى.

سعدت كثيراً بسعادتها وتملكنى شعور بالراحة بعد عناء طويل.. وأحسست أننا قطعنا معا مشواراً طويلاً وقد آن الأوان أن نستريح ونلتقط أنفاسنا ونسعد معاً بنسيم الحب والحياة.

حاولت الاتصال بها فى الصباح لأطمئن على صحتها.. وعودتها لاستكمال علاجها فى المستشفى.. حيث كان مقرراً عودتها بعد انتهاء الحفل أو فى الصباح الباكر على أقصى تقدير لاستكمال جلسات العلاج الطبيعى الذى تتلقاه.. ولم أتلق إجابة من جوالها رغم محاولتى إعادة

الاتصال عدة مرات.. فعزيت نفسى ربما تكون قد خلدت للنوم بعد
الجهد الذى بذلته فى حفل الأمس.

شغلت فى بعض أمور حياتى حتى تنبهت على مكالمة واردة على
جوالى..أسرعت أجيب على مكالمتها.. ولأول وهلة تزايدت دقائق
قلبى.. وندى العرق جبينى.. فقد حمل لى الهاتف صوت ليلى يخالطه
بكاء ونواح وصراخ هستيرى.. وعبر حشرجة صوتها ونحيبها استطعت
بصعوبة أن أميز بعض كلماتها تخبرنى بها.. وفاة.. .. ناريمان !!
ماتت ناريمان.. ماتت.. أين؟؟ ومتى؟؟ وكيف؟؟ أسئلة كثيرة
تراودنى.. ويغيب عقلى.. ويترنح جسدى.. وتنطلق أسئلتى صارخا فى
ليلى.. ماذا يا ليلى تقولين وعن أى ناريمان تتكلمين؟؟ وينقطع الاتصال
ولا مجيب عن أسئلتى!!.



الفصل الثالث

أسئلة كثيرة تطرق رأسي.. وأفكار متلاحقة تراودني.. وعلامات استفهام تزيد الريبة والشك في صدري.. وبدا عقلي مشوشا عاجزا عن إيجاد أجوبة على أسئلتى الحائرة التي انطلقت كأسهم تصيبه وتشل فكره وتستنزف قدراته.

أصابتنى حالة من الوجود غيببت مشاعري.. ولم أعد قادرا على استيعاب هذا الخطب الجلل وإدراك واقع أحياء.. وشرذ عقلي وتاهت نظراتي في فراغ لامتناهٍ.. لأعلم كم مضى من الوقت ولا أدري من أمرى شيئا.. ووهنت إرادتي وفقدت قدرتي على تحسس طريقي وخطواتي القادمة.

تمالكت نفسي بعض الشيء.. وعاودت الاتصال بليلي حتى أتيقن من خبر موت ناريمان.. وأزيل شكوكا يضيق بها صدري.. وأحاول أن أجد أجوبة عن أسئلتى تزيج عن كاهلي حيرة تملكنتني.. وعلامات استفهام تغرس بذور شك في قلبي.. ورغم تعدد اتصالاتي ومحاولاتي فإن أحدا لم يجب.

رفض عقلي وقلبي أن يقننا بموت ناريمان.. وعكفا على خلق الحجج والبراهين لتبرير رفضهما.. وحاولت أن أوهم نفسي أن نعي ناريمان لم يكن سوى درب من دروب الوهم والخيال.. وأن أحلام اليقظة ربما ساقط هذا الخبر البائس.. ولا بد لي أن أفيق من هذا الكابوس.. وقد سيطر هذا الوهم على فكري حتى كدت أتيقن أنها الحقيقة وما عداها سراب.

انصرفت إلى بعض أمور حياتي.. وعمدت أن أتناسى أمر هذه المكالمة التي هزت وجداني وتركتني بين حالة من الشك واليقين وأفقدتني توازني وصوابي .

خطوات مهزوزة ساقنتني إلى منزلي.. وشروء ذهن يتملكني.. وبحكم العادة توجهت إلى الحاسوب.. وبيد مرتعشة فتحت صفحتنا علني أجد ناريمان تنتظرني وتزيح شكاً يجتاحني.. أو أجد أجوبة عن أسئلتى ربما تبعث في نفسي أملاً أتشبث به وأجده شاخصاً أمام عيني.

طالعت في صفحتنا محادثتنا بالأمس وهي تبثني حبا وأشواقا وتعبر عن سعادتها وأمنياتها وأحلامها وخططها للمستقبل وتواعدني بحياة سعيدة مشرقة.

هذه آخر كلماتها منذ سويعات قليلة.. تحمل في طياتها آمالاً وأحلاماً وحباً للحياة.. فكيف بمن تسمى وقد امتلأت طاقة وحيوية..

تصبح اليوم وقد فارقت الحياة.. دون علة أو سبب يوردها الهلاك؟! حاشا لله أن أعترض على وفاتها.. وأعى تماما أن الموت زائر ليس بحاجة إلى سبب أو علة.. وأن الآجال لا يحكمها منطق أو عقل.. ولكنني أردت أن أستجلب الحجج حتى أستيقن عدم موتها.

بينما كنت جالسا غارقا في أفكارى بين مصدق ومكذب.. تلقيت محادثة من ليلي عبر اتصال هاتفي وكان صوتها يغلب عليه بكاء وحزن ولكنه بدا أكثر تماسكا ووضوحا من مكالمتها الماضية.. وأجابتنى عن أسئلتى الكثيرة التي بادرتها بها.. ووضعت بعض النقاط على الحروف التي تفسر لي بعض ما غمض عليّ فهمه.. وكانت أجوبتها طعنات تصيب

صميم قلبي وتؤكد وفاة حبيبتي ناريمان... فقد تحادثنا طويلا إلى أن سمعتها تخبرني أن ناريمان تم «دفنها اليوم»... دفنت اليوم !!!.. هنا تاه الحديث بيننا ولم أعد أسمع منه شيئا ولم يعلق في أذني سوى هاتين الكلمتين القاتلتين يتردد صداهما وأكاد أترنح على إثرهما.

أيقنت أن الحياة خلت من وجود ناريمان.. وأنها قد أمست ماضياً.. وغابت عن حياتي وأصبحت ذكرى غيبها القدر.. ومع موتها دفنت آمالي وأحلامي وأيام حياتي الباقية.. وعشت بعدها وحيدا شاردا تنتابني قشعريرة باردة تسرى في جسدي.. وانزويت في ركن حجرتي يتملكني الخوف ويقتلني الحزن.. فقد غاب ضوء قمرى وحجبت شمس حياتي.. ماردا يصرخ في صدري.. انطلق يحطم قيوده.. أسير هائما على وجهي.. فقد ضاع منى الطريق.. وتاه على الدرب الصديق.. ومرارة في حلقي.. وحزن يعترض قلبي.. وبحر دمع ينساب.. وضافت الأرض بي على رحابتها.

قسوة الموت حطمتني.. ولوعة الفراق مزقتني.. ووحدة عشتها أرهبتني.. وكأس الحزن تجرعه حتى الثمالة.

حاولت أتشبه بأهداب الحياة.. وبنفس كلومة وروح غائبة سعيت ألم بلحظات ناريمان الأخيرة وألمم ما تبقى من ذكراها.. وأستوضح أحداث وفاتها.. وتواصلت مع ليلي علني ألتمس في أجوبتها بعض التسلية عن نفسي وراحة تهدئ من روعي.

لم أجد سوى ما يلهب روحي ويعصف بعقلي ويلقى بي في دوامة حزن قاتلة.. فقد نما إلى علمي أن وفاة ناريمان لم تحدث بطريقة

طبيعية.. وجاء موتها بحادث فريد وعجيب.. ولم يكن أحد يتوقع أن تكون نهايتها فى هذا الحادث البسيط.. ولكنها الأسباب التى تسوقها الأقدار ونرى فيها ذريعة لفقد أحبائنا.. فقد علمت أن وفاتها حدثت عقب سقوطها من سلم بيتها فى أثناء مغادرتها مع ليلى لعودتها إلى المستشفى.

فقد تأهبت ناريمان بعد انتهاء الحفل للعودة إلى المستشفى ومعها شقيقتها ليلى تأخذ بيدها وتساعدتها على النزول على درجات سلم البيت حيث تنتظرهما شقيقتهما عائشة بسيارتها فى الخارج.. وفجأة تذكرت ناريمان حقيبتها التى تركتها فى غرفتها.. وذهبت ليلى لإحضار الحقيبة وتركت ناريمان بمفردها تنتظرها على سلم البيت.. وما هى إلا لحظات قصيرة حتى تنطلق صرخة مدوية.. ويسمع صوت ارتطام شديد.. وتسرع ليلى مذعورة مهولة لتجد ناريمان فى أنفاسها الأخيرة تنازع الموت وقد استقرت فى فناء المنزل والدماء تسيل من رأسها.. فقد تزلج «عكازها» على رخام السلم الأملس.. وخانها ضعفها.. فشفاؤها لم يكتمل بعد وقدماتها لم تقويا على حملها.. وتسقط فى برائن الموت بعدما ودعت أهلها وأحبائها فى ليلة فرح قدر لها أن تكون حفل وداع.

أدركت ناريمان أنها سوف تغادر الحياة إلى مثواها الأخير.. وأيقنت أنها فى لحظاتها الأخيرة.. وأرادت أن تخفف من وقع الصدمة على شقيقتها وتعبر عن مدى حبها وإعزازها لهما.. وكانت آخر كلماتها امتنانها لشقيقتها عائشة على إقامة حفل وداعها.. ولم يفتها أن تختصنى بمشاعر حب صادقة.. وأوصت بى شقيقتها أن تخففا عنى

وقع صدمة فراقها.. وأكدت عليهما تنفيذ وصيتها حتى تستريح في قبرها.. وأنهات بوصيتها كلماتها وفارقت بعدها الحياة .

من حيث أردت التسرية جاءنى النكد.. فقد عمدت أن يصلنى ما يهدئ من روعى.. ويضفى سكينه على نفسى.. فإذا بى أسمع من أخبارها ما يهيج أحزانى ويحطم قلبى ويصيبنى بىأس يقضى على ما تبقى لى من أمل فى الحياة.. حيث ألهمت كلماتها أحشائى.. ومزقت أوصالى.. وتركتنى بقايا إنسان .

كنت وحيدا ساهرا ليلى.. يتملكنى يقين بفراق حبيبتى وطى صفحتها.. وتأخذنى غفوة وطيف حلم يبعث الأمل فى نفسى.. وأتشبث بأوهام تمنينى أن ما ألم بى أضغاث أحلام سرعان ما استيقظ منها.
بينما أغالب النوم ويغالبنى.. تطلبه نفس هامدة أضناها الفراق..
وتجافيه روح معذبة أثختها الجراح .

تنبهت على اتصال فى ساعة متأخرة من الليل من شقيقتها ليلى..
أثار فضولى وأيقظ جوارحى.. حيث فاجأتنى بخبر لم أتوقعه قط.. ولم يدر بخلدى يوما.. قد شخّصت له عيناي.. وارتجف من وقعه قلبى..
ولسان حال يتساءل: كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟؟؟



مكالمة قصيرة تلقيتها من ليلى فتحت الباب لأسئلة كثيرة تراودني.. وأيقظت داخلي شكاً كان قد تسرب إلى وجداني في وقت مضى.. ولكنى لم أمتلك الدليل الذى يدعمه ويحفزنى أن أبوح به.. فقد أبلغتني ليلى أن عائلتها ذهبت لزيارة ناريمان فى مرقدنا بعد مضى أسبوع من وفاتها.. وهى عادة فى بلدهم ويتبعها الكثير من شعوب البلدان العربية.. حيث يقوم أهل المتوفى بزيارة مقبرته للدعاء له وطلب الرحمة والمغفرة.. وعند وصولهم إلى باب المقبرة فوجئوا بما أذهلهم وأفقدهم صوابهم.. فقد وجدوا أبوابها مفتحة ولم يجدوا أثراً لجثمان ناريمان.. مفاجأة صادمة أريكتهم وأوقعتهم فى حيرة من أمرهم.. وتحول حزنهم على ابنتهم إلى حالة من الوجوم والتعجب.. ودار بخلدكم تساؤلات كثيرة وعلامات استفهام ألقت بهم فى دوامة شك كادت تطيح بعقولهم. صدمة أريكتنى كما أريكت عائلتها.. وشاركتهم قهرهم وحزنهم الذى يعيشونه.. ناريمان لا تستحق ما يحدث لها.. فقد عاشت معذبة فى حياتها.. وها هى تتحول إلى لغز بعد وفاتها.. فقد أصابتنا جميعاً بشتات الفكر.. وحالة من الخيال الخصب تشطح بنا.. وجميعنا يحاول إدراك الجانى و يفكر بطريقته من منظوره و رؤيته .

خشيت عائلتها من لصوص المقابر واتجه فكرهم نحو عصابات تجارة الأعضاء البشرية وتخوفوا من قيامهم بإخفاء جثمانها.. وتشويه معاله.. أو تهريبه خارج البلاد.. واستقر يقينهم على استنقاذهم.. وذلك على خلفية انتشار مثل هذه الجرائم فى بلدهم وازدياد اللصوص المتاجرين فى لحوم البشر.. واتجهت ردود أفعالهم إلى هذا الافتراض واستيقنته

أنفسهم وسلموا به على أنه حقيقة ويقين.

دفعتنى هواجسى أن أميل بفكرى إلى اتجاه آخر يخالف وجهتهم..
قلم أجد فى نفسى دافعاً يحملنى على مشاركتهم فكرهم والسير فى
طريقهم.. فقد تملكنى حدس وكاد يتحول إلى يقين أن الفاعل الحقيقى
الذى عمد إلى سرقة جثمان ناريمان هو أستاذها فى الكلية.. الذى يحمل
لقب «بروفيسور».. فهذا الرجل مغرماً بحبها ويعشقها لدرجة الجنون..
وقد سردت لى ناريمان الكثير عن محاولاته اليائسة للتقرب والتودد
لها.. وعمله الدءوب لكسب ودها.. ومعاناتها من ملاحقته الدائمة لها..
وصدها الدائم له فى محاولة منها لوضع علاقتهما فى إطار محدد لا
يخرج عن علاقة طالبة بأستاذها.

لكن يبدو أن حبه الجنونى لها حجب عنه حقيقة مشاعرها نحوه
وجعلته يتوهم إمكانية الفوز بقلبها.. وقاده خياله المريض للاستمرار فى
محاولاته التقرب منها.. مع يقينه برفضها حبه وتصريحها له بارتباطها
بشخص آخر اختاره قلبها.

وقد سببت بعض مواقفها تجاهها فى تأزمها نفسياً فى أثناء دراستها
وبعض الخلافات مع زميلاتها فى الكلية.. غير أن الأزمة الكبرى التى
تعرضت لها حينما تقدم لشقيقتها ياسين يطلب يدها للزواج وهى فى
غيوبتها على الرغم من إدراكه حالتها الصحية ووضعها المرضى.. ولكنه
أدرك أن الفرصة مواتية وحاول أن يستغل حالة فقدانها لوعيها وعدم
مقدرتها على رفض طلبه أو اتخاذ موقف معارض.. وعمد أن ينال وعدا
من عائلتها يكتسب به حقاً للفوز بها بعد شفائها.. وهو ما قد حدث

بالفعل حيث وافق ياسين مبدئياً على طلبه.. مرجئاً الموافقة النهائية بعد شفاء ناريمان.. وذلك في ضوء عدم علمه بالعلاقة التي تربطني بشقيقته.. وقد عرضها ذلك لانتكاسة خطيرة في صحتها بعد شفائها من الغيبوبة وعلمها بحقيقة الأمر.. وجعلها تثور في وجه البروفيسور وتقاطع شقيقها برهة من الزمن.. ولولا تدخل الأطباء في الوقت المناسب والعناية الإلهية التي أحاطت بها لحدث ما لا يحمد عقباه.

استطاعت ناريمان بما تملكه من شخصية قوية أن تعالج الأمور بحكمة وتتغلب على كثير من المشاكل التي واجهتها آنذاك وكان لها ما أرادت.. وأنها موضوع خطبة «البروفيسور» مع اعتذار من أخيها على تدخله في أمورها الشخصية واعترافه بتجاوزه حدوده والتدخل دون قصد في اختيارها.

وبدأت مرحلة جديدة من تضفيد جراحها مع استردادها عافيتها وتمائلها للشفاء والعودة رويداً رويداً لمطالعة مستقبلها ورسم خطوطه العريضة.. والعمل على تعويض ما فاتها واللاحق بركب الحياة.

خلال تلك المرحلة راودتني بعض الشكوك تجاه البروفيسور.. وطالبتها بتوخى الحيطة و الحذر في التعامل معه وألا تأمن جانبه ومكره.. ثم توالى الأحداث بعد ذلك سريعة حتى وصلت بنا إلى ما نحن بصدده.

تكاد ريبتي في «البروفيسور» تتحول إلى يقين بزلوعه في نبش قبر ناريمان وسرقة جثمانها.. وعندى من الأسباب ما يدعم يقيني تجاهه.. فمأضيه وأفعاله غير مسئولة التي تكاد تصل الى درجة من درجات الاهتزاز النفسى.. وعشقه الجنونى لمحبوبتى ناريمان والذى

بدت ملامحه فى صور كثيرة سابقة.. وكذلك طبيعة عمله كأستاذ فى كلية الطب تمكنه من فعل فعلته وسرقة الجثمان دون أن يثير الريبة. حاولت أن أعلل جريمته وثبت فى يقينى أن حبه لها قد دفعه للاحتفاظ بجثمانها فربما يشعر بوصولها بعد وفاتها وهو ما افتقده فى حياتها. عمدت الاحتفاظ بهواجسى حتى تثبت الأيام صدقها.. أو يأتى أمر جديد يضع حدا لهذه الشكوك ويبددها.. وإن كنت أكاد أجزم بصدق مشاعرى.. غير أنى لا أستطيع البوح بها لافتقادى الدليل الذى يدعمها ويقويه.

تمر الأيام بطيئة و ننتظر جميعا ما تسفر عنه نتائج تحقيقات الجهات الأمنية.. وتكشف لنا هوية الفاعل الحقيقى.. وتتناوبنا خلالها أفكار تطوف بعقولنا.. تلقى بنا فى بحور هائجة تتقاذفنا أمواجه العاتية وتبتعد بنا عن شاطئ الأمان. . وتمر ثلاثة أيام وتعاود ليلى التواصل معى وتبلغنى عما أسفرت عنه نتائج التحقيقات.. وتنقل لى خبرا كدت أصعق عند سماعه!!



الفصل الرابع

أبلغتني ليلي أن الشرطة ألقَت القبض على عمال المدافن الذين ساعدوا على استخراج جثمان ناريمان من قبرها.. وبتضييق الخناق عليهم أدلوا باعترافات خطيرة قلبت الأوضاع رأساً على عقب.. حيث أكدوا في أقوالهم أن البروفيسور هو الذى خطط ونفذ واختطف ناريمان بعد أن أخبرهم أنها مازالت على قيد الحياة.. وقد تم دفنها بطريق الخطأ وأنه سوف يخرجها ويعالجها ويعيدها إلى أهلها.. وقام بإعطائهم مبلغاً من المال نظير مساعدته فى فتح المقبرة واستخراجها.. وجعل الأمر طي الكتمان.

كنت قد توقعت هذا السيناريو ورسمت أحداثه فى خيالى الفترة الماضية.. ولكن لم أجرؤ على البوح به لعدم وجود أدلة تدمغ ظنوني.. وهامى الأيام تثبت صدق إحساسى.. وتتحول هواجسى وبذور الشك التى تملأ صدرى إلى يقين أن البروفيسور هو من أقدم على هذه الفعلة الشنعاء وأنه المجرم الحقيقى وراء هذه الأحداث.. ولكن مالم أكن أتوقعه أو خطر لى على بال أن تكون ناريمان مازالت على قيد الحياة.. حيث اعترف عمال المقابر أنهم قاموا باستخراج ناريمان من المقبرة والحياة تدب فى أوصالها.

أخذت ليلي تروى هذه الأحداث ونبرة صوتها تعرب عن شكوكها فى رواية عمال المقابر.. خاصة فيما يخص بقاء ناريمان على قيد الحياة.. وكادت تفقد القدرة على استيعاب فحوى هذه الأحداث التى تعاقبت

أحداثها سريعا.. وأخذت تمر أمامنا كشرائط سينمائي لفيلم من الخيال العلمى البعيد عن أرض الواقع والذى دمجنا معه وحلق بنا فى دنيا الخيال. استمعت إلى حديث ليلى والتمست لها بعض الأعدار فى تشككها فى صدق رواية العمال.. فجميعنا واقعا بين مصدقا ومكذب.. وتأرجحنا الظنون بين شك ويقين.. فهذه الأحداث قد جمحت بخيالنا تارة.. ولامست بنا أرض الواقع تارة أخرى.. فكيف ولىلى أختها التى شهدت وفاتها.. وبكت فراقها.. وسارت فى جنازتها.. ووارت التراب جثمانها.. وتلقت عزاءها. وتعيش مع ذكرياتها.. فلها كل الحق أن يملئ الشك قلبها.. وتأخذ الظنون بعقلها.

أيقنت بما لا يدع مجالا للشك أن ناريمان حبيبتي لاتزال على قيد الحياة.. وأن ما حدثنى به عقلى وصدقه قلبى لم يكن هاجسا يراودنى ويسير بى فى درب من دروب الخيال.. فقد كان يتملكنى يقين بحياة ناريمان.. ولم أجد فى نفسى ما يحملنى على القناعة بموتها.. وقد تشككت كثيرا وظللت رافضا فكرة وفاتها لمدة غير قصيرة.. وأعاننى على ذلك شعور وإحساس جارف ببقائها فى دنيانا وعدم مغادرتنا للعالم الآخر.. غير أن معطيات الأمور وجزم من حولى ودفعهم الحجج والبراهين بوفاتها أخذنى لمنحى آخر وجعلنى أسلم بالأمر الواقع.. غير أننى أدركت الآن وبعد محادثة ليلى القصيرة أن ما كان يستقر فى نفسى هو اليقين ذاته.

حاولت بعد جمع شتات فكرى أن أستيقن بعض الأمور التى غمض على فهمها.. وأتحرى بعض الأجوبة عن أسئلتى الحائرة التى عمد

عقلى على ضحها حول قضية وفاة ناريمان وكيفية دفنها وهى على قيد الحياة.. مما يجعل من وفاتها لغزا بحاجة إلى بعض المعلومات التى تساعد على فك طلاسه وحل رموزه.

تواصلت مع ليلى واستطعت أن أضع يدي على بداية الخيط الذى فسر لى بعض ما التبس على فهمه وغمض استيعابه.. وكان بداية فك اللغز الذى استعصى على حله.. حينما علمت أن البروفيسور هو من قام بالكشف على ناريمان بعد سقوطها ودخولها فى غيبوبة فقدت على إثرها الوعي.. و قد استغل حالة شتات الفكر والحزن التى ألمت بالأسرة وثقتهم به وأخبرهم أن ناريمان فارقت الحياة على إثر سقوطها وإصابة رأسها إصابة قاتلة.. وفند أسباب الوفاة فى تقريره الطبى الذى كتبه بخط يده.

يبدو أن البروفيسور قد أيقن أن الظروف باتت مواتية لتنفيذ خطته الإجرامية التى ربما كانت وليدة اللحظة.. أو قد يكون وضع خططا سابقة لاختطافها وحينما سنحت له الفرصة عمد على استغلالها.. وأوهمه خياله المريض أنه بذلك يستطيع أن يملك ناريمان ويوقعها فى قبضته وينال منها ويتزوجها.

لم يساور أحد من العائلة شك فى تشخيص البروفيسور وتقريره الطبى.. فلم يدر بخلداهم أن يكون أستاذها وطبيبها بهذه العقلية الإجرامية.. وأن تخول له نفسه فعل جرم لا يضاويه فيه عتاة الإجرام. تولى البروفيسور ترتيبات تجهيز الجثمان بما له من صفة فى المستشفى ومعرفته بالقائمين على هذه الأمور.. وثقة أسرتها أن ابنتهم

فى أيد أمينة.. وانشغالهم فى ترتيب إجراءات الجنازة والدفن والاتصال بالأهل والأقارب.. وغير ذلك من الأشياء المعتادة فى هذه الأحوال.. وقد أتاح له ذلك تنفيذ خطته بالاستعانة والاتفاق مع أعوانه اللذين ساعدوه على إتمام المراسم وإنهاؤها دون أدنى شك.

استعدت العائلة لدفن ابنتهم وسارت جنازة مهيبة حضرها القاصى والدانى وودعها الأهل والأحباب وعيونهم يملؤها الدمع وقلوبهم تفيض بالحزن.. يملأهم الشك أنهم فى طريقهم لمواراتها التراب وأن جنازتها هى آخر عهدهم بها.. وأن من كانت بالأمس تملأ الحياة حركة وبهجة.. باتت اليوم جثماناً بلا حراك سرعان ما يضمها قبرها وتغيب عن دنياهم. وحضر البروفيسور جنازتها وكان على رأس المشاركين والمشيعين.. وأول من تقدم بواجب العزاء لأسرتها وذرف من الدمع الكثير وتباكى معهم لفقدانها .

وبعد انتهاء مراسم الدفن ومغادرة الأهل والأصدقاء سارع بقلب ميت ونفس مريضة بتنفيذ خطته ونبش قبرها بمساعدة عمال المقابر.. وقام باختطافها وذهب بها إلى مكان غير معلوم.

انتابتنى حالة من الغضب والحنق على هذا المعتوه وفعلته الحمقاء التى زاد من جرمها أنها تأتى ممن تبوأ أسمى المهن الإنسانية.. وارتقى أعلى الدرجات العلمية.. وأقسم على الأمانة والمسئولية.. وها قد ضرب عرض الحائط بالقيم والمبادئ الإنسانية.. وحنث بقسمه وسخر علمه ومهنته لخدمة أغراضه الشيطانية.. ونفذ جريمته غير عابئ بالتضحية بمستقبل إنسانة بريئة فى مستهل حياتها.. والقضاء على حلمها..

وحرمانها فرحتها التي جدت واجتهدت سنين طويلاً للحصول على شهادتها وتتويجها في حفل تخرجها.. وقام بدفنها والحياة تدب في جسدها.. وحرمها أهلها وحبیبها وعالمها.. وأورد صحتها الهلاك بعد أن كادت تتماثل للشفاء.

ذهبت السكرة وجاءت الفكرة وبدت أسئلة كثيرة تطرح نفسها: أين ذهب بها؟ وماذا عن حالها؟ وكيف السبيل للعثور عليها وإنقاذها من برائته؟ أسئلة تمنينا أن تحمل لنا الأيام التالية الإجابة عنها.. وإن كان الشك بدا يراودنا بعد أن طالت الأيام وزادت الأمور غموضاً!!



تركنا الأمور بيد الجهات الأمنية التي بعثت في نفوسنا الطمأنينة بأن القبض على البروفيسور لن يستغرق فترة طويلة وسوف يكون في غضون الأيام القليلة القادمة.. وتعود ناريمان لأهلها سالمة.. وينال الجاني جزاءه ويعاقب على جرمه.

انتظرنا أياما طويلة حتى مضى أكثر من أسبوع ولم تبدو في الأفق أية بادرة أمل.. فقد أخفقت الشرطة في الوصول إليهما أو تحديد مكان إقامتهما.. ولم تستدل على معرفة وجوده أما زال داخل القطر أم انتقل بها خارج البلاد؟

بدا القلق يدب في نفوسنا خاصة قد علمنا أن عائلة البروفيسور تتمتع بنفوذ واسع في الحكومة.. ولهم يد طائلة تتيح لهم فعل ما يبدو لهم.. وربما ساعده ذلك على تنفيذ جريمته وبقائه حرا طليقا هذه المدة الطويلة التي امتدت لأكثر من أسبوعين.

زاد يقيننا بعجز الشرطة في العثور عليهما.. وتخاذل رجالها في التوصل إلى مكانهما.. وأدركنا أنه لا بد لنا من الاعتماد على أنفسنا في العثور عليهما.. ومحاولة إيجاد الوسيلة التي نستقى بها معلوماتنا التي تمكننا من معرفه مكانهما و الطريق إليهما.. خاصة بعد أن تأكدا بما لا يدع مجالاً للشك أن البروفيسور هو المجرم الحقيقي الذي قام باختطافها.. ولم يتبق سوى التيقن من وجودها على قيد الحياة .

وقد ساقنا لنا الأقدار خدماتها.. وبصدفة لم تكن في الحسبان توصلت إلى دليل يؤكد بقاء ناريمان حية حتى الآن.. فقد كنت أطالع صفحتنا على موقع التواصل الاجتماعي بصفة يومية منذ علمت بوفاتها..

وعكفت على مناجاتها وبثها أشواقى وأحزاني.. ووجدت فى ذلك أنساً
لنفسى ومواساة لها فى مصابها.. حيث كنت أسترجع ذكرياتى وأعيش
فى أجوائها.. وأشتم عقب لقاءاتنا الماضية.. وقد لاحظت أن ما أخطه
من كلمات أناجيها بها يتم قراءته.. ولا يصلنى من أحد رد أو تعليق.
«حيث تتيح خاصية تكنولوجية تسجيل توقيت قراءة الرسائل المرسله».
لم أعط للأمر أهمية فى البداية.. ولكن مع تكرار قراءة رسائلنى أثار
ذلك فى نفسى بعض الريبة.. ولكنى عزوت ذلك إلى شقيقتها ليلى..
حيث خطر لى أن لوعتها وأحزانها على فراق ناريمان أخذتها لزيارة
صفحتنا لتتلمس كلمات أخذتها الأخيرة «خاصة أنها تحتفظ بكلمة السر
التي تتيح لها فتح موقع المحادثة.. وكانت تنقل لى على صفحتنا أخبار
ناريمان فى أثناء مرضها.. لذا أدركت أنه ربما أخذها الفضول أو المصادفة
لقراءة كلماتى ورسائلنى التي أناجى بها محبوبتى الغائبة عن عالمنا.
ولكن فى ضوء المستجدات وما آلت إليه الأمور.. راودتنى بعض الشكوك
أن ناريمان ربما هى التي تقرأ كلماتى ورسائلنى.. خاصة بعدما أجابتنى
ليلى عن استفسارى أنها لم تفتح صفحتنا ولم تقرأ ما بها قط منذ وفاة
شقيقتها.. وأن أعصابها لا تحتمل قراءة كلماتها الأخيرة.. ولذلك قررت
عمل محاولة لتأكيد ظنوني.. ربما تفتح لنا أبواب أمل جديدة تمكننا من
العثور عليها.. فأرسلت رسالة إلى ناريمان عبر صفحتنا وطلبت منها أن
تجيبنى ولو بإشارة إن كانت كلماتى تصلها وهى التي تقرأها.. ورجوتها
أن تتواصل معى وتحاول أن تخبرنى إن كانت مازالت على قيد الحياة.
وكم كانت مفاجأة سارة حملتها لى رسالة منها فى اليوم التالى..

حيث جئني رداً «أنا ناريمان ما زلت حية في معية البروفيسور». رسالة قصيرة أرسلتها.. استوقفتني طويلاً وأخذت أدق في كلماتها وأحملك في حروفها وأعيد قراتها مراراً وتكراراً.. وأحاول أن أسطر على انفعالاتي وردود أفعالي.. وتملكتني رغبة جارفة في البكاء تمتزج بفرحة قلب ملتح وشوق وحنين لحبيب غائب.

تمالكت نفسي بعض الشيء من وقع هذه المفاجأة.. وأيقنت أخيراً بما لا يدع مجالاً للشك أن ناريمان ما زالت على قيد الحياة.. وهي قارئة رسائلتي التي أثارت ريبتي طويلاً.. وتتمتع بصحة جيدة تمكنها من التواصل معنا.. وأننى بذلك قد أمسكت ببداية الخيط الذي يقودنا لمعرفة طريقها ويمكننا من العثور عليها.

أسرعت أنقل البشري إلى عائلتها حتى تطمئن قلوبهم ويثبت يقينهم بحياة ابنتهم.. وكان لوقع الخبر أبلغ الأثر في أهلها.. فتلقوه بين مصدق ومكذب.. وتملكتهم حالة بين الشك واليقين.. أن ناريمان قد ماتت بين أيديهم وتحت أعينهم.. ودفنت منذ أيام قليلة.. ولا يزال عزاؤها منصوباً للأهل والأحباب.. وليس من السهل عليهم تقبل مثل هذه الأخبار دون التيقن من حقيقتها.

تمضى الأيام ونزاد يقيننا جميعاً بحياة ناريمان.. فقد تحدثنا طويلاً على صفحاتنا.. وسردت لي ناريمان الكثير من تفاصيل واقعتها الذي تحياه وحياتها في كنف البروفيسور.. وتجاذبنا معاً أطراف الحديث وفكرنا كثيراً في محاولات كسر قيودها ورسم الخطط لتحريرها من سجنها الذي أقامه «أستاذها» وعين من نفسه سجاناً لها.. وفرض عليها عزلة ووحدة

إلا من وجود خادمة لها تعينها على أمرها وقضاء حوائجها .
حالت حاله ناريمان الصحية المتردية وضعف بنيانها وعدم قدرتها
على الحركة بصورة طبيعية أن تنفذ ما وضعناه من خطط كانت كفيفة
بمساعدها على الهرب من محبسها..وحاولنا مرارا أن نجد مخرجاً
يمكنها من الخروج من هذه الأزمة ويفلتها من بين يدي البروفيسور..
هذا العالم الذى وظف علمه ودهاءه فى التخطيط لجريمته بعقلية مجرم
عتيد الإجرام.. فقد تمكن من الهروب بها إلى بلد عربى مجاور عن طريق
البحر بعد تغيير هويتها وإضفاء أسم جديد لها يمكنه من التحرك بها
عبر البلاد المختلفة دون أن يثير الريبة أو الشك ويبتعد به عن الوقوع
تحت طائلة القانون.

تملك ناريمان الخوف وجافاها النوم..فقد شعرت أن البروفيسور
يخطط للزواج بها.. ويسير قدما نحو تحقيق هدفه.. ويحاول جاهدا
استمالة قلبها وطلب ودها..ويتفانى فى معالجتها وتطبيبها..ويعمل
على تنفيذ أوامرها محاولا استرضاءها وكسب عطفها وحبها..فهو عاشق
بدرجة مجرم.

ومازاد من خوف ناريمان وأصابها بحالة من الرعب..تلميحه لها
بتصميمه على الزواج بها وانتظاره شفاءها لإتمام زواجهما.. وأنه لاسبيل
أمامها للخروج من محبسها والعودة لأهلها إلا بالموافقة على هذه
الزيجة..وأوضح لها أن فكره قد هداه إلى تنفيذ مخططه ولم يجد سوى
هذه الطريقة للفوز بقلبها والزواج بها بعد أن رفضت طلبه الاقتران بها
مرارا وتكرارا..وأيقن أنها سوف تضيع من بين يديه وتتزوج بمن اختاره

قلبها.. وقد رأى أنه بذلك يستطيع أن يمتلكها ويتزوج منها.. وتنتفى
المسئولية الجنائية الواقعة عليه حال عودتهما زوجين لبلدهما .
حالة من الوجوم سيطرت على ناريمان وامتلاً قلبها بأسا وخوفاً..
وساءت أحوالها النفسية وتدهورت حالتها الصحية.. وقد ساعد على
ذلك إحساسها القاتل بالوحدة وتفكيرها الدائم فى أسرتها وما آلت
إليه حياتها وضياع مستقبلها من بين يديها .
قرأ البروفيسور هذه التغييرات وأدرك أن حلمه يكاد يضيع من بين
يديه وأن ما آلت إليه حالة ناريمان النفسية سوف تقف حائلاً بينه وبين
تحقيق هدفه.. وأدرك أن عليه أن يخرج بها من هذه الأجواء قبل أن
تزداد الحالة سوءاً وتصل إلى مرحلة الاكتئاب الذى يستعصى علاجه..
وأراد أن يسرى عنها بعض الشيء ويخلق لها عالماً ينتشلها من وحدتها
ويخرجها من حالتها.. فسلمها حاسوبه الشخصى عليها تجد فيه سلوتها
ويخرجها من أزمته.. بعد أن تأكد من عجزها على توصيل معلومات
تفيد مكانهما... وهذا ما كان فى ظاهر الأمر.. غير أنه كان يضر فى
نفسه شيئاً آخرًا!



الفصل الخامس

استطاعت ناريمان أن تتواصل معى ولكن فى حدود ضيقة حيث كان يحدد لها أوقاتا معينة لاستخدام الحاسوب ويضعها تحت مراقبته.. غير أنى وجدت فى نفسى بعض الغرابة من تسليمه الحاسوب لها رغم علمه بإمكانية أن تتواصل مع الأهل والأصدقاء.. وربما استطاعت باستخدام التكنولوجيا الخاصة «بالشبكة العنكبوتية» التوصل إلى مكان وجودهما أو معرفة بعض التفاصيل عن مكانهما.. وقد أثار ذلك بعض علامات الاستفهام لدى فى بادئ الأمر.. غير أنى حاولت تجاوز هذا الأمر وعزوت هذا التصرف الغريب إلى خوفه الحقيقى على صحتها ومراعاة لعدم تدهور حالتها.. ولكن يبدو أننى تعاملت مع الأمر بكثير من حسن النية وكان يجب أن أكون أكثر حذرا خاصة مع إدراكنا أننا نتعامل مع عقلية إجرامية تطوع الظروف لخدمة أغراضها.. فقد اكتشفنا بعد برهة من الوقت المغزى الحقيقى وراء تركه الحاسوب مع ناريمان.. وأدركنا أننا وقعنا فى فخ نصب لنا بإحكام.. وعلى الرغم من تحذيرى ناريمان من هذا الشراك وتأكيدى عليها أن تتيقن من وجودنا فى مأمّن منه.. غير أنها أفاضت فى بعث الطمأنينة فى قلبى من الوقوع فى هذه الخدعة.. وربما لجأت لذلك من خوفها أن أكف عن تواصلى معها وهى فى محبستها لاتجد من يشاركها الحديث أو يشد من عزمها ويبثها أمناً وقوة يجعلانها تتحمل هذه الفترة العصيبة من حياتها.. وأربما أفاضت فى حسن النية مثلما فعلت.

فقد استغل البروفيسور لحظات مرضها وضعفها وعدم وعيها الكامل بعد غيبوبتها وحصل منها على «كلمة السر» الخاصة بصفحتنا على موقع التواصل الاجتماعي دون أن تعي هي ذلك.. واستطاع بهذه الحيلة أن يتوصل إلى أسرارنا وينفذ إلى خططنا ويتجسس على مكالمتنا.. وربما خطط لهذا وكان هو هدفه الحقيقي من وراء تركه حاسوبه معها وتسليمها إياه. وقد استطاعت ناريمان معرفة مخططه والتوصل إلى حقيقة تتبع محادثاتنا ومعرفة ما يدور بيننا وإفساده مخططاتنا.. وذلك حينما منع منها الحاسوب بعد علمه بمحادثة بيننا كادت تكشف عن عنوانها في البلد الذي يعيشون فيه.. فقد أوعزت لها أن تطلب من الخادمة شراء نوع معين من الأغذية المغلفة أو العصائر أو شىء نستطيع أن نعرف من خلال غلافه أو عبوته مكان تصنيعه أو عنوان المتجر الذى يبيعه.. واستطعنا بذلك أن نحدد علامة تجارية لأحد المحال الموجودة فى هذا البلد.. وعن طريق عنوان هذا المتجر توصلنا إلى القطر الذى اختطفت إليه ولا يزالان يقيمان به.

وقد كشف لها البروفيسور عن علمه بما يدور بيننا وما نتناقله من أخبار.. وذلك بعد مناقشة ساخنة بينهما وشجار عنيف على إثر محاولته منعها استخدام الحاسوب مرة أخرى.

على الجانب الآخر كانت عائلتها تحاول جاهدة إيجاد مخرج لابنتهم ينقذها من معاناتها ويردها سالمة إليهم.. وقد تسببت إطاله مدة اختطافها وعدم جدوى محاولات الشرطة من الوصول إليها أن بدأت الأمور تخرج عن نصابها ويزداد الشحن النفسى وانفلات الأعصاب..

وهذا ما دفع شقيقها ياسين لمحاولة معرفة مكانها بالضغط على أهل البروفيسور علمهم يعترفون له بمكانهما أو يفيدونه بمعلومة تساعد على التوصل إليهما.. وقد أخذته الحمية والغضب وذهب لبيتهم بمفرده دون أن يصطحب معه أحداً من الأهل أو الحرس الخاص به.. ودارت بينه وبين أهل البروفيسور مناقشة حادة سرعان ما تحولت لمشادة حامية أحتد فيها الطرفان واستشاطا غضباً.. فما كان من أحد أفراد عائلتهم إلا أن قام بطعن ياسين بسكين طعنات نافذة بالصدر.. أصابته إصابة بالغة نقل على إثرها إلى العناية المركزة بالمستشفى بين الحياة والموت.

بدأ إحساس اليأس يدب في نفوسنا.. وازداد الأمر سوءاً وتعقدت الأمور.. فجميع الطرق باتت مغلقة في وجوهنا.. فالشرطة تقف عاجزة عن معرفة مكانهما.. وقد استنفذت محاولاتى للتوصل إليهما.. وعائلتها تقف حائرة لاتملك من أمرها شيئاً خاصة وقد أضيفت لمصائبهم مصيبة جديدة وأصبحوا بين نارين.. نار اختطاف ابنتهم وجهلهم مكانها وخوفهم عليها نوائب ما تحمله الأيام القادمة.. ومصيبة شقيقهم الأكبر سندهم فى الحياة الذى يرقد غائباً عن الوعى لا يدرك من أمره شيئاً.. يتأرجح بين موت وحياة يتجاذبانه.. وعلى الجانب الآخر فإن البروفيسور أخذ فى السير قدما لتحقيق هدفه ويصر عليه إصرار من اكتسب حقاً وتملكه.



سارت بنا الأيام على هذه الحال بطيئة كئيبة لا يغير من وقعها مغير ولا يكسر رتابتها جديد.. حتى جاء يوم أصبت فيه بحادث عارض أرقدنى وغيبنى عن الوعي عدة أيام جاوزت الأسبوعين.. حيث كنت أشارك فى إحدى التظاهرات التى تجتاح وطننا هذه الأيام وباتت سمة من سمات حياتنا.. وذلك بعد قيام ثورة مصر العظيمة التى أبهرت العالم فى ٢٥ يناير ٢٠١١م واستطاعت إزاحة حكم نظام فاسد دام أكثر من ثلاث عقود.. وتبعته ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م لتصحيح المسار.. وأعقبها فترة من القلاقل بين مؤيدى الثورة ومعارضيه من أنصار جماعة الإخوان المسلمين.. الذين أطيح بهم بعد حكم لم يدم أكثر من عام.. وخلال هذه الفترة كثرت المواجهات الدامية بين الطرفين واخلفت الكثير من القتلى والجرحى.. وتعددت التظاهرات تملأ شوارع وميادين مصر.. وكنت أشارك فى بعض هذه التظاهرات السلمية معبرا عن وجهتى ورأى كمواطن من أبناء هذا الشعب العظيم.. وفى إحدى هذه المظاهرات تعرضت المسيرة فجأة لأحداث عنف وإطلاق أسلحة نارية من جانب أفراد من الطرف الآخر.. وحدث تدافع بين المتظاهرين ومحاولة الهروب والنجاة بأنفسهم من الرصاص المنطلق من كل مكان حولنا.. وأدت حالة الهرج والمرج التى أصابت الجميع إلى تساقط العشرات نتيجة دفع بعضهم بعضاً.. وكنت أحد هؤلاء.. وأصبت ببعض الكسور والكدمات فى مختلف أجزاء جسدى دخلت على إثرها فى غيبوبة أرقدتنى فى المستشفى لأكثر من أسبوعين تغيبت فيها عن العالم الخارجى.

علمت ناريمان بما حدث معى من صديقة لنا على علم بقصتنا وتعلم جميع تفاصيلها وما ألم بنا من مصائب القدر.. غير أن ناريمان لم تتحمل صدمة خبر إصابتى.. وإضافة مصيبة جديدة على مصائبها

الكثيرة التي حلت بها.. ولم تتمالك نفسها واجتاحتها أزمة نفسية شديدة أصابتها بصدمة عصبية أفقدتها حركة قدميها وأصابتها بشلل فى ذراعها اليمنى.. وحدث ما كنا نحاول أن نتجنبه وحذرنا منه أطباؤها من ضرورة المحافظة على هدوء أعصابها وعدم تعرضها لانفعالات حادة تؤثر فى نجاح العملية التى أجريت لها مؤخرا واستطاعت أن تحرك بها قدميها وتبدأ فى السير بها حتى كادت تقارب الشفاء لولا هذه الأحداث الجسم التى ألمت بها.. وها هى تتعرض لانتكاسة حذر منها الأطباء وشدوا من خطورة نتائجها.

بعد مرور أسبوعين تماثلت للشفاء من الحادث الذى ألمَّ بى وعدت إلى إدراك ما حولى.. وكان أول سؤال لى عن ناريمان وصحتها وما آلت إليها حالها مع سجانها.. وهل أطلق سراحها وفك أسرها أم ما زالت على وضعها؟.. واستطعت أن أستقى آخر أخبارها من صديقنا التى داومت على الاتصال بها ومتابعه أحوالها.

وبقدر الحزن الذى تملكنى من تدهور حالتها الصحية وما أصابها وألم بها من شلل أقعدها وعاد بنا سيرتنا الأولى.. فقد سعدت بخبر آخر نقلته لنا صديقنا عن عودة ناريمان إلى عائلتها.. واحتجازها فى المستشفى لتلقى العلاج والعناية اللازمة بعدما وصلت إلى حالة كادت تودى بحياتها.

فقد علمت أن ناريمان قد امتنعت عن تناول الطعام والشراب بعد صدمتها بخبر إصابتي.. واستحضرت ما ألمَّ بها من مصائب الدهر.. فهامى ترقد عاجزة لا تستطيع تحريك قدميها وذراعها وتنتظر معجزة من السماء لتعيد إليها حركتها.. وضاع حلمها ومستقبلها فى أن تصبح طبيبة ويتحقق حلم ظل يراودها حتى اقتربت من تحقيقه وهاهو يتبخر

أمام عينيها.. وشقيقها وسندها «ياسين» يرقد بين الحياة والموت لا يعي من أمره شيئاً.. وها قد أصيب حبيبها مؤخراً ولا تعلم شيئاً عن مصابه ومدى خطورة حالته.. وبروفيسور معنوه.. متربص بها.. ينتظر تحقيق حلمه وذبح ضحيته بسكين بارد وقلب أعمى.

تجمع ذلك كله أمام عينيها.. وتملكتها حالة من اليأس والزهد فى الحياة.. فقررت الانسحاب منها والامتناع عن الطعام والشراب.. وساءت حالتها وتدهورت صحتها وباتت أقرب إلى الموت .

أيقن البروفيسور أن ناريمان مقدمة على الهلاك لامحالة وحاول أن يثنيها عن قرارها ولكن محاولاته باءت بالفشل.. وخشى على حياتها مع اقترابها من الموت.. فقرر العودة بها وتسليمها للمستشفى لتابعتها والعناية بها.. وفر هارباً تاركاً وراءه بقايا إنسانه حطمت آمالها وأحلامها وباتت تنتظر معجزة من السماء تعيدها إلى حياتها التى سلبت منها وهى فى أوج سعادتها.

وأقف عاجزاً أرفع راياتى مستسلماً لقدر ينازلنى.. وشريط من الأحداث يمر أمام عيني أجتز ذكرياته.. وقلب يحترق.. ودمعة رقراقة تتحجر فى مقلتي.. ولا أملك سوى رجاء وأمل أن تحل بنا معجزة تعيد لنا سعادتنا التى أبى القدر أن يتمها علينا وسلبتها منا الأيام.. ونتطلع معاً للمستقبل بعيون زائغة.. وقلوب وجلة.. وشك يراودنا.. وثقة مفقودة تملأ نفوسنا.. فقد عشنا بداية قصتنا وفرحنا وسعدنا وتمنيا أن نتوج حبنا بنهاية سعيدة ترسم البسمة على وجوهنا.. وشاءت الأقدار ألا ينسد الستار.. وتظل قصتنا.. بداية... بلا نهاية.

«تمت»

الجزء الثاني

مارد الأسفلت

مارد الأسفلت

انطلقت سريئة سيارة الإسعاف تشق سكون الليل معلنة وقوع حادث لتفسح لها السيارات على طريق مصر الإسكندرية الصحراوى .. وبينما الإسعاف تمخر عباب الطريق مسرعة لتصل إلى موقع الحادث.. يصلنى صوتها وكأنه يأتى من فضاء بعيد أو من خلال مشهد سينمائى يدور حولى وأنا غائب عن تتبع أحداثه.. فالدماء تسيل من رأسى الملقاه على عجلة قيادة سيارتى.. و ينزف جسدى بشدة.. وقد تهشمت ساقى بين حطام السيارة.. ولا أكاد أعى الأحداث إلا لبرهة ثم أغيب عنها وكأنها غفوة نوم تأخذنى من سهرى أو يقظة تقطع نومى الذى سرعان ما أعود إليه مستغرقا .

تلمح عينى زوجتى على كرسى السيارة بجانبى ترقد جثة هامدة فى سبات عميق لاتبدى حركة وقد فارقت الحياة سريعا بعد دقائق قليلة من الحادث.. وبالكاد أرى أبنى «على» الذى لم يتجاوز عامه الرابع وقد أدركته عصابة من خفافيش الليل وانتزعته من حضن أمه التى ماتت وهى تضمه على صدرها.. خاصة بعد أن تعرفوا على شخصيتى وأيقنوا أنهم وقعوا على فريسة وكنز يمكنهم أن يغرفوا منه ما شاءوا بحصولهم على فدية مقابل إطلاق سراحه.. فقد تنامى إلى سمعى نقاشهم وهم يُذكرون بعضهم بعضا وينبرى أحدهم ليعرفهم بشخصى ويذكرهم بـ «سيد دلنجر» الرجل القاسى الذى تتلمذوا على يديه وشربوا أصول الصنعة من خلاله.. فهم من صبيانى الذين عملوا معى سابقا غير أنى لم أستطع أن أحدد

هويتهم أو أتعرف على شخصيتهم.. فقد عمل معى الكثيرون.. وتركنى
وذهب الكثير منهم ليستقل بعمله بعيدا عنى أو هربا من معاملتى القاسية
وبطشى بهم.. وقد سمعتهم يتندرون على فظاظتى معهم وسوء معاملتى
ورغبتهم فى الانتقام منى وخطف ولدى للمطالبة بغيرته.

كانت تصلنى أصوات كثيرة ونداءات تحاول إفاقتى والاطمئنان
أننى مازلت على قيد الحياة.. وهمهمات من حولى لا أكاد أتبينها أو
أستوعبها.. فينتابنى شعور أنى فى حلم أو كابوس دموى لا أستطع
الفكك منه وأغوص فى دوامة تبتلعنى وتلقينى فى أعماقها حيث الدماء
والأشلاء.

أيقنت بعد دقائق قليلة من انحراف عجلة القيادة فى يدى وانقلاب
السيارة عدة مرات على الطريق السريع.. أن هذه آخر لحظات حياتى
وأن طائر الموت يحوم حولى ويكاد يلتقطنى ويفوز بفريسته.. غير أنه
وعلى الرغم من إصابتى الخطيرة يبدو أنه قد كُتِبَ لى عمر جديد ونجوت
من الموت بأعجوبة .

أصابنى صوت سيارة الإسعاف وهى تقلنى إلى مستشفى الطوارئ
وتشق طريقها بسرعة بحالة من عدم الاتزان واختلاط الأمور.. فقد عمد
عقلى الباطن فى هذه اللحظات الحرجة من حياتى أن يجتر ذكرياتى
عن أيامى السابقة حينما كنت أتتبع صوت سيارات الإسعاف على
الطرق السريعة وينتابنى حالة من السعادة عند سماعه ينطلق معلنا وقوع
حادث على الطريق.. ومدى طربى وسعادتى عند سماع صوت السرينة
الخاص بها.. ذلك الصوت الذى يزلزل قلب مستمعيه لإدراكهم أنه يعلن

وقوع كارثة وسقوط ضحايا.. غير أنى لم أبال يوماً بمُصابى الحوادث أو قتلها.. وكان ما يهمنى أننى قد وقعت على كنز ويجب أن أستغل وقتى بأسرع ما يمكن فى جمعه وامتلاكه.. فأنا مثل الحانوتى رقص قلبه فرحا بينما تنفطر القلوب حوله حزنا على فقيدهم .

.. وكان ما يشغل بالى وأحرص عليه تتبع سير الإسعاف حتى وصولها إلى مكان الحادث.. ثم أقوم بمعينة المكان جيدا وألقى نظرة فاحصة على السيارة المنكوبة ومحتوياتها.. وربما لا أنظر إلى أصحابها و أتابع حالتهم وما آلوا إليه بعد الحادث إلا لأطمئن على مدى إصابتهم وقدرتهم على العودة هم أو ذووهم بسرعة إلى مكان السيارة لتحميلها والعودة بها إلى حيث موطنهم وسكنهم .

فور وقوع حادث على الطريق أسارع مع صبيانى فى همة ونشاط بسرقة متعلقات القتلى والمصابين و«تقليب» السيارة من كل ما يمكن أن تصل إليه أيدينا فى غفلة من الناس المتجمهرين حولنا الذين يشغلهم إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المصابين ومحاولة إخراجهم أو إخراج جثثهم.. وفى لحظات قليلة نكون قد للمنا كل ما بالسيارة.. وسرعان ما نستقل دراجاتنا البخارية وننطلق على الطريق مبتعدين عن موقع الحادث.

بعد برهة قصيرة من الوقت والانتهاء من نقل المصابين والقتلى وهدوء الأمور فى مكان الحادث.. وانفراض تجمع المتجمهرين حوله.. نعاود مرة أخرى حيث السيارة المنكوبة وقد خلت من الحراسة والمتابعة.. ونعمل بخفة وسرعة على فك أجزائها وتحميل ما خف وزنه وغلا ثمنه.. وقد ساعدتنى مهنتى السابقة فى ورشة لإصلاح السيارات على

أن أبرع في ذلك وأعرف بواطن الأمور وكيفية التعامل مع السيارة وفك مكوناتها.. وسرعان ما ننتهي من عملنا وننطلق من المكان تاركين السيارة وقد باتت عظما بلا لحم.

استمرت الحال على هذا المنوال ردحا من الزمن حتى استطعت أن أكون ثروة ضخمة ساعدني على جمعها إمبراطورية كبيرة من شياطين الأسفلت الذين يعملون لصالحى ويأتمرون بأمرى.. وتمكنت بما أتمتع به من بأسٍ وبطشٍ من السيطرة عليهم وجمعهم تحت لوائى دون أن يخرج أحد عن طوعى.. على الرغم من أن الكثير منهم من عتاة الإجرام وممن اشتهر عنهم البلطجة وترويع الآمنين.. غير أن مجرد ذكر اسم «سيد دلنجر» كان كافيا بجعل مفاصلهم ترتعد خوفا.

رأيت بعد فترة من الزمن وبعد أن أصبحت من أصحاب الثروات وجمعت الملايين أن أحاول أن أغير من وضعى ومهنتى.. وأن أندرج فى سلك رجال الأعمال أتخذ منه ستارا أغسل فيه أموالى وأظهر بمظهرٍ جديد يتيح لى حياة سهلة بعيدا عن شقاء الحياة التى أحيها ومخاطرها اليومية.

كان لى ما أردت حيث استطعت أن أشارك فى أحد المصانع الكبيرة وأصبح صاحب الحصاة الكبرى فيه.. وأطلقت صياني وتركت لهم حرية العمل بعيدا عنى.. على أن يختار كل منهم طريقه بما يتراءى له ويحاولوا محوى من ذاكرتهم ونسياني.. وسرعان ما انخرطت فى عملى الجديد ومباشرة مصنعي وانتقلت معه إلى وسط ومجتمع يختلف كثيرا.. بل لا يوجد وجه مقارنة بينه وبين مجتمعى السابق.

محا الأطباء من وجهي آثار فترة الشقاوة التي عشتها وتركت علاماتها من حُفر وندوب تركتها نصول المطاوى والأسلحة البيضاء على وجهي.. ومن خطوط متعامدة ومتوازية ملأت جسدي وكأننا ترسم صورة عبثية لم تكتمل.. فقد أجريت عدة عمليات تجميل في أكبر المراكز والمستشفيات المتخصصة التي استطاعت أن تنهي آثار زمن الشقاء.

وبقدر ما استطاع مشرف الطبيب تحسين صورتي وإزالة آثار الماضي.. فإن مشرف الزمان لم يستطع أن يمحو ما في قلبي من شقاء وبأس وقسوة ونقمة على الناس من حولي الذين أذاقوني من ظلمهم وإذلالهم أيام حياتي الأولى ما قتل الإحساس في داخلي وعصف بكل ذرة عطف أو حب في قلبي.. ولم يتركوا سوى بذور الشر والقسوة والجبروت تنمو حتى جعلت مني «سيد دلنجر» الذي يخشاه الجميع.

وما إن وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى حتى أسرعوا بي علي عجل إلى غرفة العمليات نظرا لخطورة حالتي التي تطلبت تدخلا جراحيا سريعا لإنقاذي من نزيف داخلي ومعالجة الجروح التي أصابتنى في مختلف أنحاء جسدي.. وشلل أصاب ذراعي وأعجز لساني عن النطق. واختلف الأطباء كثيرا حول كيفية علاج قدمي واستقرت بهم الحال أخيرا بالاتفاق على ضرورة بترها نظرا لتهتك أنسجتها وطحن عظامها جراء الحادث.

خرجت من غرفة العمليات وقد أصبحت بقايا إنسان.. بترت ساقى.. وأصابني الشلل وعجز لساني.. وماتت زوجتي.. وخطف ولدى.. وتبخرت الحياة أمام عيني.. وشعرت أن آثار «البنج» بدأت في

الزوال.. ودخلت مرحلة بين الإفاقة والنوم.. وشعرت بعقلي الباطن يصر على أن يعود بى لأيام حياتى الأولى ويعرض شريط ذكريات نشأتى التعيسة وطفولتى المشردة.. ويعرض أيام كاد الزمان يمحو آثارها وتسدل عليها ستائر النسيان.

ترجع بى الذاكرة منذ أن وعيت على الحياة.. إلى طفل صغير لا يعرف له أهلاً ولا سكناً.. يفترش الأرض ويلتحف السماء.. أنام بجوار حائط مسجد على رأس الحارة التى وجدت نفسى بها فى أحد الأحياء القديمة فى قاهرة المعز.

فقد أدركت منذ نعومة أظافرى أن حياتى مختلفة عن حياة أقرانى وأطفال الحارة التى أسكن شوارعها وأزقتها.. فليس لى أهل يعيلوننى ولا بيت يؤوينى.. أهيم على وجهى فى نهارى.. لا أجد ما يسد رمقى إلا بعض بقايا وفضلات طعام أهل الحارة مما يجودون به.. وأقضى يومى فى اللعب واللهو بشوارعها وحواريها.. حتى إذا ما جن الليل أنزوى بجوار حائط مسجد الحى.. أو أجد لى مكاناً تحت عربة خضار مملوكة لأحد البائعين الجائلين من سكان الحارة كان يتركها أمام بيته بعد عودته من بيع الخضار والفاكهة فى شوارع المناطق القريبة من منطقتنا ليستيقظ فى اليوم التالى يعدها ليوم جديد ويخرج لشراء بضاعته من سوق الجملة الموجود على أطراف الحى.. ويعاود تكرار أيامه السابقة فى بيع خضاره وفاكهته.. وهكذا تدور أيامه متشابهة لا جديد يطرأ عليها.. وكانت هذه العربة تعد ملجأ وملاذ لى فى كثير من أوقات وأيام حياتى خاصة فى أيام الشتاء الباردة فلا مأوى من الأمطار والبرودة الشديدة

سوى جوفها حيث ألمم أطرافى وأكور نفسى كى أجد بعض الدفء فى أجزاء جسدى التى تدفء بعضها بعضا.

تركت مرحلة الطفولة ودخلت طور الصبا الذى اختلف عن أيامى الأولى.. وبدأت أدرك الحياة التى أعيشها وواقعى الذى نشأت فيه وفرضته على الأيام.. ولاحت أمام عينى حقائق لم أكن أفطن إليها أو أعيها.. حيث أدركت أنى من المشردين فى الأرض وممن كتب عليهم الشقاء خلال رحلة حياتهم.. لذلك حاولت أن أجد لنفسى عملا يحقق لى قدرا من الاستقلال يعيننى على الحياة ومتطلباتها.. وتطوع بعض أهل الحارة الطيبين لمساعدتى فى الحصول على عمل يكفلنى.. غير أنى كنت قد تعودت على حياة التشرد والحرية غير المسئولة ونمت داخلى روح التمرد والعصيان.. لذلك لم أوفق فى أى عمل من الأعمال الكثيرة التى حاولت إن أنخرط بها وأتعلمها.. وكان ذلك يدفع أصحاب الأعمال إلى معاقبتى والنيل منى لإخفاقى فى الأعمال الموكولة لى وعدم انصياعى لأوامرهم وطلباتهم.. حتى إن المهنة التى أحببتها وأجدتها وعملت بها فترة من الزمان فى ورشة لإصلاح السيارات.. لم أستطع الصبر عليها.. ولم يتحملنى أصحابها ولا زبائنهم.. فطبيعة الحياة التى أحيهاها وقسوة الأيام والمعاملة الفظة والزجر من كثير من أهل الحى.. قد قتل اللين والإحساس فى قلبى.. وزاد من خشونة طباعى.. حتى إننى وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة كنت محسوبا على عالم البلطجة والإجرام وممن يخشى الناس جبروتهم وقسوتهم.

وكنت أرى نظرة الخوف والرعب فى عيون من حولى.. وعمل الجميع على كسب ودى وتفادى شرى.. وأصابنى ذلك بنوع من الرضا فقد

وجدته عوضا لى عن أيامى السابقة التى نالنى فيها من الذل والقهر ما نزع من قلبى كل مشاعر الخير والرحمة.. وتطورت بى الحال حتى أصبحت عتيدا فى دنيا الإجرام.. وذاع صيتى فى منطقتنا والمناطق المحيطة.. وفرضت سطوتى على الحى والأحياء القريبة منه.. وتزاملت مع عدد من المجرمين وعتاة الإجرام فى المناطق المجاورة لنا.. وجمعتنا سهرات سكر وعريدة.. ولفت رءوسنا سجائر الحشيش والمخدرات.. وأصبحت من المطلوبين والمطاردين من الأمن ورجاله حتى إنى قد أصبت برصاصه فى قدمى اليمنى فى أثناء إحدى المطاردات وتركنتنى بعاهة مستديمة أعرج على إثرها.. وقد منحتنى عاهتى علامة بين أقرانى من صحبة السوء وزادتنى قسوة وجبروت أصيهما على من يقف فى طريقى أو يخالف أوامرى.. ولذلك خشينى الجميع وتملكهم الرعب من مجرد ذكر اسمى وكأنى شيطان يستوجب العياذ بالله من حضوره.

وعرفت فى المنطقة باسم «سيد دلنجر» من فرط قسوتى وبطشى.. وكان ذكر هذا الاسم كفيلا بأن يصيب قلوب أشد الرجال بالهلع والخوف.. وقد أراد أصدقاء السوء أن يخففوا من وطأة هذا اللقب فى جلساتنا الخاصة التى تجمعنا حيث يلفنا دخان المخدرات وتطيح برءوسنا كؤوس الخمر.. فلقبونى «سيد سيكا» وهو الاسم المحبب لى حيث أشعر معه بخروجى من شقاء النهار وشقاوته وانغماسى فى دنيا الليل وملذاته .

عادة أنهى سهراتى وأدخل الحى بعد انتصاف الليل عندما يغطى الظلام بيوته ومعاله.. و أول ما يطالعنى وأجده أمامى يجوب أسفلت الطريق وشوارع المنطقة الكلب «مارد».. وأرى نظراته وقد مألها الود

والحب ويستقبلني بهز ذيله تعبيراً عن عرفانه ووفائه للجميل.. فقد صادفت «مارداً» منذ أكثر من عشر سنوات وهو جرو صغير.. ورأيت أطفال الحارة وقد أمسكوا به وأخذوا يكيلون له الضرب بعصيمهم وأقدامهم وهو يصرخ مستنجداً بمن ينقذه من أيديهم حتى كاد يلفظ أنفاسه تحت وطأة ضرباتهم.. ونظرت حولى فلم أجد منقذاً من أهل الحارة الذين قست قلوبهم ولم تهتز لأنين هذا الجرو الضعيف.. فهرعت محاولاً إنقاذه من بين أيدي هؤلاء الأطفال و عملت على معالجة جروحه ومتابعة حالته حتى تماثل للشفاء ثم أطلقتته بعد أن تعافى واسترد صحته.

حمل لى «مارد» هذا المعروف وكنت أرى الود فى عينيه إذا ما التقت عينانا.. غير أنى كنت أشعر برباط خفى يربطنى بهذا الكلب.. ربما تشابه ظروف حياتنا والقسوة التى تعرضنا لها فى شوارع المنطقة والحي القديم الذى وُجدنا فيه وتربينا على ترابه معاً ولا نعرف لنا أصولاً تربطنا به.. ويبدو أن ما تعرض له «مارد» فى بواكير حياته ومعاناته من أطفال الحى ومطاردتهم له دوماً.. قد ترك فى نفسه الأثر ذاته الذى ملأنى حقداً وبأساً.. فقد شب مارداً ومظاهر القسوة بادية على وجهه.. وزادته حياته التعسة سعارةً وعنفاً وملأت عينيه رعباً وتحدياً.. وأصبح «مارد» بلونه الأسود الداكن الذى تخالطه بعض الألوان البيضاء والرمادية التى تعلقو مقدمة صدره وقد عفرته الأتربة كتمثال تم نحته من الطين وصبغه بلونها.. ومع عينيه الجاحظتين وأنيابه البارزة جسداً صورة الشيطان وخشيه الجميع وعمدوا على تجنبه والابتعاد عن طريقه.

حاول أهل المنطقة كثيراً الخلاص من «مارد» سواء بأنفسهم أو بالإبلاغ عنه.. غير أن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل.. حتى إن

رصاصات رجال الصحة قد جانبته عندما أرادوا قتله والخلص منه ..
إلا من رصاصة أصابت قدمه وجعلته يسير على ثلاث أرجل بعد أن
تسببت فى شلل لرجله الأمامية .. وهو ما جعل أهل المنطقة يربطون
بينى وبينه فى كثير من الصفات حتى فى عرجة القدم التى نعانيها معاً.
تابعت «مارد» كثيراً وهى يجوب الأسفلت يطارد فرائسه أو يهاجم
أحد الأطفال أو مزجراً أمام غريب أو عابر سبيل ليملاً قلبه هلعا
ورعباً .. وعلى الرغم من أن كل من بالحي والمنطقة يعرفونه .. ووعى
الكثير من الأطفال على وجوده فإن خوفهم وخشيتهم بأسه وكرههم
له يزداد يوماً بعد يوم لما يتجشمونه من خوفاً ورعباً من مهاجمته لهم
وإذائهم.

وقد تملكنى الفضول يوماً ما وساقنى أن أتتبع خطوات «مارد» وهو
يقطع الطريق السريع الذى يربط بين منطقتنا ومنطقة قريبة لنا حيث
يوجد متجر بيع للقطط والكلاب الأليفة .. ورأيت «مارداً» يجلس بعيداً
عن المتجر و يتجه بنظره نحو هذه الحيوانات المنزلية و نظرة ألم وحسرة
تملئ عينيه على ما آلت إليه حاله .. وربما تملكه نوع من الحسد والغيرة
من هذه الكلاب الباهظة الثمن .. اللامعة الشعر ونظيفة الجلد .. ورأيت
ينظر إلى طعامها الذى لم يتذوقه يوماً فى حياته ولم ير له شبيهاً فى
حارته التى شب بها .. ثم ينزوى جالساً يتأمل و يرقب السيارات الفارغة و
أصحابها وهى تصطحب هذه الكلاب المحظوظة لتسكن الفلل والقصور ..
وتصيبه حالة من الحزن ينكس على إثرها رأسه ويضع ذيله بين رجليه
ويعود أدراجه وقد امتلاً قلبه حسرة وانكساراً وازداد بأساً وشراسة.

أدركت منذ هذا اليوم الرابط الذى يربط بينى وبين «مارد» حيث تذكرت مع نظرته طفولتى وأنا أتابع أطفال الحى مع عائلاتهم فى أعيادهم وقد لبسوا الجديد وأكلوا الثريد وناموا بفراشهم الدافئ فى أحضان أسرهم تحت سقف بيت يؤويهم ويحميهم من برد الشتاء وحرارة الصيف ويعطيهم الإحساس بالأمان.. وكم من أيام نظرت إليهم بحسرة وحسد وتمنيت أن أفوز بيوم من حياتهم.. بل أحيانا كان يتملكنى الخيال وأهرب معه من واقعى البائس الذى وجدت نفسى أسيره دون ذنب جنيته أو جرم ارتكبته.. ربما أفرزت قسوة الحياة وشظف العيش كائنين مختلفين فى تصنيفهما جمعت بينهما صفات ونظرات مشتركة جعلت أهل الحى يربطون بيننا ويذكروننا معاً.. وبات كرههم وتمنيهم الخلاص من «مارد الإسفلت» و «دلنجر» أملاً يتمنونه ويسعون لتحقيقه. حاولت جاهداً الفكاك من هذا الواقع وأن أجد لنفسى عملاً يمكننى من أن أكمل حياتى ويحقق لى حياة البذخ التى تمنيتها ورغبت فيها حتى أنفق على سهراتى وأعوض ما فاتنى وأنسى شظف العيش الذى لاحقنى على مدار حياتى.. وأدركت أنى لن أستطيع العمل أجيراً عند أحد فى منطقتنا أو خارجها فطبيعتى العدوانية الشرسة جعلتنى لا أطيق أن أوامر بأمر أحد أو أكون تابعاً له.. وعلى جانب آخر فإن أصحاب الأعمال باتوا يخشوننى ولا يريد أحد منهم عملى معه.

وساقنى القدر لممارسة عمل لم يخطر لى على بال يوماً ما.. فقد عرض صديق لى مرافقته لمشوار سفر خارج المدينة لجلب بعض البضائع اللازمة لتجره.. وركبت معه دراجته البخارية وسارت بنا على الطريق السريع

الذى يربط بين القاهرة والمدينة القريبة التى تتجة إليها.. وما إن كاد الطريق ينتصف حتى وقع أمامنا حادث لسيارة نتج عنه وفاة قائدها.. ووجدنا أنفسنا أمام السيارة والقتيل بمفردنا قبل أن ينتبه إليها المارة ويسارعوا إلى محاولة الإنقاذ أو تلبية للفضول الذى يملكهم.

وفى غضون لحظات قليلة خطر بفكرى الإجرامى أن «أقلب» قائد السيارة المتوفى وأسرق أغراضه وأمواله.. وعملت بسرعة على تنفيذ فكرتى والانتهاء منها.. ثم وقفت مع المتجمهرين حول الحادث الذين تجمعوا فيما بعد حتى حضرت الإسعاف وتم نقل جثمان قائد السيارة وانفض الجميع.. غير أنى لم أترك مكانى ووقفت طويلا أمام السيارة المنكوبة أتفحص حطامها لتكتمل فكرتى الشيطانية بالعودة فى وقت لاحق لفكها وسرقة ما يمكن حمله من أجزائها.. واعتمدت على مهارتى التى اكتسبتها من عملى السابق فى ورشة إصلاح السيارات حتى أصبحت على دراية كاملة بهذا العمل .

ومنذ هذا اليوم أصبحت تلك حرفتى وصنعتى.. وابتعت دراجة نارية وأصبحت أجوب طرق السفر السريعة الممتدة فى جميع المحافظات أقطع الأسفلت ذهابا وإيابا بحثا عن حادث لسيارة على الطريق.. وكثيرا ما أتتبع سيارة الإسعاف وأنطلق خلفها لتصل بى إلى غايتى المنشودة.

استمرت الحال على هذا المنوال واستطعت أن أجمع ثروة ضخمة فى غضون عدة أعوام قليلة خاصة بعد أن كونت شبكة من الصبية وجعلت كل مجموعة منهم تختص بطريق من الطرق التى تربط المحافظات بعضها ببعض.. وعمل تحت إمرتى عدد كبير من هؤلاء الصبية الذين

أطلقت عليهم شياطين الأسفلت لانتشارهم بجميع الطرق وظهورهم فجأة عند كل حادث.

وداوم على العمل معى عدد كبير من هؤلاء الصبية .. وعمد البعض الآخر إلى الاستقلال فى عمله وانفصل عن العمل معى .. وتكونت مجاميع وعصابات مختلفة تشعبت أهدافهم وأعمالهم .. وكنت فى سبيلى للسيطرة عليهم أمارس معهم القسوة والشدة حتى أضمن ولاءهم واطاعتهم لأوامرى خاصة وأن الكثير منهم يحمل الجينات الإجرامية وتمرس فى أعمال البلطجة والإجرام .. و لم يتحمل الكثير منهم معاملتى الفظة وانشق للعمل بعيدا عنى .. وكانت تصلنى أخبار بعضهم وأعلم الكثير عن نشاطهم .. فيما غاب عنى نشاط البعض الآخر .

دارت عجلة الأيام سريعة وتبدلت الأحوال و استطعت أن أجمع ثروة طائلة وحاولت أن أبدو فى صورة غير صورتى وهيئة غير هيئتى .. فعمدت إلى استثمار أموالى وشراء مصنع للمواد الغذائية .. وأصبحت بين عشية وضحاها من رجال الأعمال ورجلاً من رجال الصناعة والاستثمار يشار إليه بالبنان فى مجتمع الصفوة .. وغيرت من هيئتى الخارجية وحاولت محو ما حَظته شقاوة الأيام على وجهى .. غير أنى لم أستطع تغيير ما بداخلى وإزالة تراكمات الأيام وآثار قسوتها على قلبى رغم محاولاتى الكثيرة .. وأدركت مع الأيام أن قسوتى وفظاظتى باتا من نسيج ذاتى ولا سبيل لعلاجهما وفصلى عنهما .

حاولت أن أكمل وجاهتى الاجتماعية وأتزوج من صفوة القوم .. وسأقت لى الأقدار فرصة للزواج من فتاة من أسرة ثرية سقط والدها فى

برائث الإفلاس وكادت ديونه تدخله السجن.. ولجأ لى لمساعدته فى أزمته وسداد دينه مقابل الضمانات التى أطلبها.. وكعهدى بنفسى عمدت على استغلال الفرصة التى لاحت لى وطلبت منه الزواج بابنته.. ورغم تحفظه وممانعته فى أول الأمر فإنه وافق فى النهاية تحت إلحاح وضغط منى.. وخشية من تعرضه للسجن حال عدم تمكنه من سداد دينه.. وهو لا يعلم عنى سوى أنى رجل أعمال ناجح ومستثمر كبير فى السوق. وتم لى ما أردت وانتقلت بزوجتى إلى سكن جديد فى أحد الأحياء الراقية وسط القاهرة.. وتركت سكنى الفاخر الذى شيدته فى الحى الذى نشأت وتربيت به.

زاد المال من سطوتى وفظاظتى مع أبناء الحى الذى تربيت فيه.. وكنت أتلذذ فى إذلالهم والنيل منهم خاصة إذا أعوزتهم الحاجة ولجأوا إلى فى طلب العون.. وكانت كراهيتى لهم تجعلنى أتشفى فى مصائبهم وأتلذذ من شقائهم.. وكثيرا ما رأيت الحقد والخوف فى عيونهم غير أنهم كانوا يداهنوننى ويظهرون لى غير ما فى باطنهم.. وشيد بينى وبين أهل الحى سور من الخوف زاد من ارتفاعه سطوة المال حتى حال بينى وبينهم وأصبح حاجزا يفصل بيننا على الدوام.

مر شريط الذكريات أمام عينى وتذكرت بداية حياتى وأيامى الأولى.. وها أنا أفقد ما بنيته فى سنين عمرى.. وفى دقائق قليلة بترت قدمى وأصبحت عاجزا عن الحركة.. وملأت الجروح جسدى وتركت بصماتها على وجهى.. وفقدت زوجتى التى أحببتها وطننت أنى قد وجدت دفء البيت والعائلة برفقتها.. وابنى «على» الذى أنجبته مع اقترابى

من الأربعين وعهدته سندا وامتدادا لحياتي.. قد اختطفته عصابة من شياطين الأسفلت من صنع يدي ولا أعلم عنها شيئا وتطالبني بثروتي مقابل إطلاق سراحه والإبقاء على حياته.

حياتي تضيع من يدي وعمرى يُسرق مني في غفوة من الزمان ولا أجد صديقا أو أنيسا يؤازرنى ويأخذ بيدي.. حاولت أن أجد حضناً يضمني ويمنحني بعض الأمان.. فطلبت من رجال الإسعاف أن يأخذوني إلى مسكني في الحي القديم الذي شهد طفولتي وريعان شبابي.. علني أجد بقرب أهله بعض الدفء والأمان وأشعر في معيتمهم بروح العائلة التي أفتقدتها.

انطلق بي رجال الإسعاف صوب منزلي محمولا على كرسي متحرك لا أكاد أقوى على الحركة.. ووصلت إلى الحي القديم وأخذت أجول بنظري في وجوه أهله محاولا استدراك عطفهم.. وهم ينظرون لي ويشيخون عني بوجوههم و في نظراتهم شماتة وتشف وقسوة كتلك القسوة التي عهدتها منذ كنت طفلاً صغيراً وهم يقتلون كل نبتة حب وخير تنمو في قلبي.. فتجتاحني موجة من الغضب والبأس تعود بي لأيامى الأولى على أهل هذا الحي القاسية قلوبهم.. ولكن ماذا عساي أن أفعل وليس في وسعي شيء فقد أصبحت عاجزا حتى عن الكلام والتعبير عن غضبي؟!!

وفي خضم مشاعر القسوة والحنق المتبادلة مع أهلى بالحي الذين نشأت وترعرعت بينهم.. شعرت بعين يملؤها الحب والحنين تنظر لي وتطيل النظر.. وإذا «مارد الأسفلت» قادم نحوى يهز ذيله ويمسح عنقه في ثيابه.. فبادلته النظرات لأجد في عينيه نظرة انكسار وحرزن

وقد أصابه الهرم وضمير جسده واعتل ومألت الندوب والجروح جلده
الطينى.. ولكنه لا يزال يحمل في قلبه بعض الوفاء.



«تمت»

رسالة شهيد

رسالة شهيد

مع إشراقة شمس ويوم جديد.. استيقظت مع أسرتي.. نمارس طقوسا روتينية اعتدناها وأصبحت جزءا من حياتنا اليومية.. وهى لا تختلف كثيرا عن عادات الكثير من الأسر المصرية المتوسطة التى تعد المكون الأساسى للمجتمع المصرى. فقد أيقظتنى والدتى فى الصباح الباكر لهذا اليوم.. وكعادتى لم أستيقظ من الوهلة الأولى.. فقد ألحت أمى علىّ كثيرا.. حتى استطعت أن أترك فراشى الدافئ.. وأنهض متثاقلا.. تجتاحنى موجات من النعاس.. أحاول أن أتغلب عليها وأقاومها وكأنى فى دوامة تحاول أن تبتلعنى.. وأجاهد فى الفكك من قبضتها.. أزيح عنى غطائى.. وأثناء طاردا نوما يشدنى أن أخلد فيه.. وما إن أحاول النهوض حتى تبادر إلى أذنى صوت أمى بنبراته اليائسة وهى تحاول إيقاظ إخوتى.. وتكرر محاولاتها مرة تلو الأخرى حتى توقظ الجميع ولا تترك منهم أحدا حتى تطمئن أنه قد ترك فراشه وجفا نومه.. فبرودة الشتاء تجعل من الغطاء ملاذا آمنا.. وتضفى على النوم متعة لا تعادلها متعة أخرى.

وسرعان ما يمر الوقت وفى غضون دقائق قليلة يكون جميع من فى البيت قد نفضوا عنهم نومهم.. وتحول البيت الى مايشبه خلية نحل.. كل أفرادها يعرف واجبه وهدفه المعتاد.. ويحاول أن يسرع فى إنجازه ليغادر إلى دروب الحياة المختلفة.

سريعا أنهت والدتى إعداد مائدة الإفطار.. وتجمع حولها أفراد أسرتى الصغيرة.. وفى صدارة المائدة يجلس أبى.. وقد أنهى إفطاره

بصورة سريعة حتى قبل أن نبدأ نحن فطورنا.. وكأنه أراد أن يرسل لنا رسالة عملية مفادها أن الوقت كاد يدهمنا ويجب علينا أن نسرع حتى لا يأخذنا عن واجباتنا.

وبينما نتناول إفطارنا كان أبى يبدي بعض ملاحظاته التي لا يمل عن تكرارها لي ولإخوتي منتقضا تارة وناصحا تارة أخرى.. وقد أمسك بيده كوبا من الشاي الساخن.. أخذ يرتشف منه في عجالة.. وسيجارة لاتفارق شفثيه ينفث دخانها وكأنه يدفع بها عدوا أراد النيل منه.. أوزيريح عن كاهله همًا جائئًا على صدره.

يعمل أبى موظفا بسيطا في إحدى المصالح الحكومية.. ورغم حصوله على مؤهل جامعي فإن نظامنا البيروقراطي قد أحكم عليه قبضته وحاصره في وظيفة صغيرة لم يستطع الفكك من برائثنها أو الصعود على سلمها.. فلم تتح له الظروف الترقى إلى درجات أعلى أو الوصول إلى سلم الوظائف القيادية التي تحتاج إلى قدر من المؤهلات الشخصية التي يفتقر إليها.. فطبيعته الجادة واستقامته الشديدة وميله إلى الحق وعدم اللين فيه.. وما يتمتع به من كبرياء وكرامة تمنعه من مداهنة رؤسائه.. ناهيك عن افتقاره إلى «واسطة» من علية القوم الذين يستطيعون تحريك المياه الراكدة.. ساعد ذلك كله على بقائه في وضعه الوظيفي المتدني وحاصره في الفكك منه.. وأصابه بحالة من اليأس والقهر.

وقد اضطرته الظروف المعيشية للعمل في أكثر من عمل إضافي ليحاول توفير ما يلزم من متطلباتنا وحوادثنا.. لذلك لم نكن نراه ونجلس معه كثيرا.. فما إن ينهى عمله حتى يأتي للبيت ليستريح بضع دقائق يتناول

فيها غداءه ثم يسرع مهرولا ليلحق بعمله الإضافي يكتسب منه بعض الجنيهاً القليلة التي تساعد على مواجهة ظروف الحياة الصعبة... وعادة ما ينتهي عمله في ساعة متأخرة من الليل.. فيعود للبيت محملاً بطلباتنا ولوازم حياتنا اليومية وقد أنهكه يوم عمل طويل شاق اعتاد عليه وأصبح منوال حياته اليومي.. وسرعان ما يتناول عشاءه ويستلقى على فراشه ويخلد إلى نوم عميق.. يلقي به إلى صباح يوم جديد وعمل جديد.. وهكذا يدور يومه وتمر أيامه وكأنها حلقة مفرغة ما إن يصل إلى نهايتها حتى يعيد الكرة مرة أخرى.. فهو يتفانى ويشقى أملاً في إسعادنا وطمعا أن يرانا في حال أحسن من حاله وتكون أيامنا أفضل من أيامه. تجلس بجوار أبي إلى مائدة الإفطار شقيقتي ليلي الطالبة في المرحلة الثانوية.. وهي الشقيقة المدللة في بيتنا تميزها ابتسامتها البشوشة التي لاتفارق شفقتها.. وما تتمتع به من روح متوهجة وحركة دءوبة ونفس متسامحة ساعدتها على الثراء الاجتماعي واكتساب العديد من الصديقات اللاتي يلتفنن حولها يحببنها ويقدرنها لما تملكه من شخصية مرحة.. وعقلية متزنة.. وبهجة تشعها أينما وجدت.

ليلي دائمة المناقشة والاستفسار ومحاولة فهم الأمور وإدراك الواقع.. وهي كثيرة الجدل بصورة راقية.. وأحاديثها دائماً شيقة لا تبعث الملل على مستمعيها وتجد دائماً آذاناً صاغية لمناقشاتها وحواراتها.. وهي أيقونة البيت بلا منازع وزهرته المتفتحة.. وكلنا نحبها ونقدرها وخاصة أبي الذي يعمل دائماً على تلبية طلباتها في حدود الإمكان.. وتحاول ليلي دائماً بما يميزها من عقل وإدراك لظروف حياتنا أن تجنب والدنا

مزيدا من الضغوط المادية.. رغم احتياجها في بعض الأحيان لشراء بعض المتطلبات والملابس الجديدة شأنها شأن أقرانها.. وكنت بين الفينة والأخرى ألاحظ من نظرة خفية.. نظرة تمنّ وحسرة في عينيها إذا ما أعجبها حذاء أو فستان جديد وهي تدرك عدم وسع والدنا شراءه لثمنه المرتفع الذي ربما يتجاوز ميزانية الأسرة.. وكانت تلك النظرة متكررة نظرا لما نعانیه من افتقار في تلبية طلباتها وأمانيتها الكثيرة مثلها مثل أية فتاة في عمرها تنظر للحياة نظرة أمل وبهجة.. فهي تدرك أن مصاريف الدروس الخاصة التي يتكبدها والدنا شهريا تمثل عبئا شديدا الوطأة على ميزانية البيت ومصاريفه.

وعلى الرغم من إحساسها بالدونية وسط زميلاتهما في هذا الجانب.. فإنها لم تسمح لهذا الشعور أن يسيطر عليها ويحبط من روحها ومعنوياتها.. ولم تعد إطلاقا أن تظهر هذا الجانب أو تضي عليه أهمية.. ولم تصرح أو تلمح يوما ما بحاجتها إلى شيء ينقصها إلا الضروريات القصوى.. ولذلك كنا نعدّها أميرة البيت بلا منازع ونحيطها بقدر كبير من الحب والاحترام.

ويجلس على الجانب الآخر من المائدة شقيقى الأصغر حسين.. تلميذ المرحلة الابتدائية البالغ من العمر عشر سنوات.. وهو «دينامو» الحركة فى منزلنا وشعلة نشاط لا تخبو ورمز لشقاوة لا تهدأ.. فهو يعيش مرحلة يجتاز فيها الطفولة إلى طور الصبا.. وبداية إدراك الواقع والإلمام بتفاصيل الحياة التي كانت تمر عليه لا يلقي لها بال.. وباتت الآن تشكل فى رأسه أسئلة وعلامات استفهام تحتاج إلى تفسير وأجوبة مقنعة يستطيع

تفهمها.. لذلك فقد كان كثير الأسئلة عن كل ما يعجز عن تفسيره ولا يستطيع إدراكه.. وكانت أسئلته واستفساراته تلح عليه فى وجود أبى المجهد دائما والذى كثيرا ما كان يضيق ذرعا بأسئلته الكثيرة ويطلب من والدتى أن تنقذه من سطوته وتقوم بالرد على استفساراته الساذجة أحيانا والمحيرة أحيانا أخرى.

وكان أبى ينظر إلى حسين نظرة حزن وشفقة.. وينتابه فى كثير من الأحيان شعور بالذنب تجاهه.. فقد تملكه هاجس أن حسين قد جاء فى الوقت الخطأ.. وأن ولادته غلطة غير محسوبة.. وكثيرا ما ردد أمامنا خوفه أن توافيه المنية قبل أن يكمل رسالته معه ويصير رجلا يعتد بنفسه... وقد جعله هذا الهاجس يفرط فى تدليله ويعمل على تلبية طلباته دون كلل أو ملل رغم كثرتها.. ويكثر من الإلحاح فى الوصية به حتى أنه تمكن من نقل هذا الشعور لنا.. وصار حسين طفل العائلة المدلل.. وحظى بحبنا واهتمامنا جميعا.

وحول المائدة كانت أمى تقطع المسافة إلى المطبخ ذهابا وإيابا عدة مرات.. لا تكاد تجلس حتى تقف مرة أخرى لتأتى بصنف من الطعام تم تجهيزه.. أو تكمل صنفاً آخر قارب على الانتهاء.. وتأتى بمزيد من الخبز.. أو زجاجة مياه.. وهى تفعل ذلك دون كلل أو ملل.. وما إن تجلس حتى تنهض مسرعة للمطبخ لتعد أكواب الشاي وتخلطه بالحليب.. وتأتينا به مسرعة.. وهكذا حالها حتى ننتهى من فطورنا.. ثم تحمل الأطباق فى عجلة بعد أن فرغنا منها وتسرع بغسلها و شطفها. وفى أثناء ذلك تملى على أبى الطلبات اللازمة لاحتياجات البيت وعليه إحضارها عند عودته بعد انتهاء عمله.. وتشدد عليه ألا ينسى

شيئاً منها كعادته كل يوم حتى لا تقع في حيرة من أمرها وهي تعد غداء اليوم التالي.. وأبى يجيبها في اقتضاب إنه قد سمع وأدرك وسوف يأتي بالمطلوب.. ويسرع مغادرا إلى عمله حتى يدرك وقته مبكرا ولا يتأخر عن مواعده.

وتكمل أمى برنامجها اليومي و تقوم بتجهيز ملابس حسين ومساعدته على ارتدائها وضبط الكرافطة الحمراء حول عنقه.. ووضع الكتب والأقلام في حقيبة المدرسة.. وتعد ساندويتشات الفسحة وتضعها في حقيبته.. ولا تنسى أن تلقنه بعض النصائح المعتادة للمحافظة على أدواته وكتبه وساندويتشاته.. ثم تلقى عليه نظرة فاحصة لتطمئن أنه قد استعد وأصبح جاهزا لمغادرة المنزل لمدرسته.. وتودعه بقبلة على جبينه على وعد اللقاء بعد انتهاء اليوم الدراسي.

وتبدأ أمى بعد أن تطمئن على الجميع في ارتداء ملابسها على عجل حتى تلحق بداية طابور الصباح في مدرستها الإعدادية القريبة من البيت و التي تعمل بها مدرسة لمادة العلوم.. وتأتى كل يوم مجهدة تشكو مر الشكوى من وقوفها ساعات طويلة على قدميها تشرح الدروس.. وانتقالها من فصل إلى آخر.. صعودا ونزولا لدرجات سلم المدرسة.. ناهيك عن طابور الصباح.. ومتابعة التلميذات فترة الفسحة.. وذهاب صوتها في محاولاتها توصيل المعلومات وسط ضجيج وعدم مبالاة من الطالبات بالشرح والفهم.

ودائما ما تقص علينا من النوادر والحكايات التي تحدث في المدرسة مع الطالبات ومدرساتهن أو مع بعضهن البعض.. من قلة احترام..

وتربية مفقودة.. وعجز إدارة المدرسة على التصرف حيال مواقف كثيرة تجد كل يوم لم تكن توجد على أيامهن.. وكم أبدت استغرابها وعجبها من هذه الأحداث وترحمها على أيام مضت لم تشهد مثل هذا .
وتغيب عن المائدة شقيقتي الكبرى التي تزوجت منذ عامين وأنجبت لنا «آية» التي تملئ بيتنا حبا ودفئا عند زيارتها لنا مع والدتها فى نهاية الأسبوع.. ومنتظر جميعا هذا اليوم الذى يجمعنا معا ونسعد بالدفء الأسرى وله العائلة.

وتملأ «آية» الصغيرة التى تجاوزت العام بقليل حياتنا ضحكا وبهجة وسعادة. ويسعد بها جدها وترتفع ضحكاته مجلجلة على غير عاداته اليومية.

على الرغم من زواج شقيقتى منذ أكثر من عامين فإن والدى مازال غارقا فى الديون التى استدانها حتى يستطيع تجهيزها واستكمال متطلبات زواجها.. وقد عاشته خلال هذه الفترة وهو يعانى أيما معاناة من متطلبات الزواج الكثيرة وما يتبعها من مصاريف خاصة بالفرح والمعازيم وغير ذلك مما يلزم كل بنت فى عرسها.

وكننت أسمعته وأراه هو ووالدتى يتهامسان أحيانا ويتصايحان أحيانا أخرى حول تدبير مايلزم من الأموال لشراء ما يلزم شقيقتى فى جهازها واستكمال زواجها.

.. وقد عانى والدى ووالدتى الكثير خلال هذه الفترة العصبية التى مرت علينا.. حتى إن كثرة الدين والتفكير فى سداده قد أرق نومهما كثيرا وكاد يفسد فرحتهما بزفافها ويوم عرسها.. وقد حمدنا الله كثيرا

أن أتم عليها الزواج بخير وذهبت إلى بيتها الجديد مع زوجها.. وما زال والدى بعد عامين من زواجها يرقل تحت وطأة الدين المتراكم عليه ويحاول جاهداً أن يعمل على سداه فى موعده.

أسرة صغيرة بسيطة مثل كثير من أسر مجتمعنا المصري.. التفكير فى تدبير أمور معيشتهم يشغل الحيز الأكبر من وقتهم.. و ساعات العمل المتواصل تقضى على الجزء المتبقى من حياتهم.. تدابير الحياة تشغل نهارهم.. والفكر فى الدين يؤرق نومهم.. ومع ذلك فإنهم يجدون بعض الوقت للتسرية عن نفوسهم.. وبعض الزيارات العائلية و اللقاءات الأسبوعية التى تضى على حياتهم بعض البهجة والسرور.

تمضى بنا الحياة.. تربط بيننا أواصر المحبة والرحمة وننعم بصحة وهدوء بال واستقرار نحمد الله عليه.. وتمتلئ قلوبنا إيماناً تزداد به نفوسنا قناعة ورضاء بالواقع على أمل أن تغير الأيام بعض ملامحه الصعبة ويمن الله علينا بالفرج القريب.

خرجت فى صباح هذا اليوم بعد أن ودعت أمى وسلمت على أبى وإخوتى.. وأخذت طريقى المعتاد إلى جامعتى فى وسط القاهرة حيث أدرس بكلية الحقوق فى عامها الأخير.. ولا يشغل فكرى سوى اجتياز امتحانات هذا العام حتى أستطيع الالتحاق بعمل يساعد على تخفيف الحمل عن والدى.. وكيفية بداية حياتى العملية بعد التخرج وحصولى على شهادة الليسانس..

يوم اعتدت مثله كثيراً ولم أكن أدرى أنه يوم غير عادى ليس فى حياتى فقط ولكنه فى حياة كل المصريين.. وآخر ما كان يجول بخاطرى

أن يكون هذا يومى الأخير بين أهلى وأحبتى.. وأن مائدة الإفطار التى جمعتنا لم تكن سوى وداع أخير لعائلتى.. و نظراتهم لى وأنا جالس بينهم.. وشعور جارف يتملكنى بحبهم.. وخفقان قلبى وشجن يملأنى.. ومبادلتهم جميعا الحديث والمشاعر الدافئة.. لم تكن إلا لحظات وداع.. لم نكن ندركها وكانت تحركنا إليها مشاعرنا بطريقة عفوية غير محسوسة .

غاب عنى أن نظرة أبى وهو يتفحصنى وهو خارج إلى عمله إنما هى نظرة وداع يملأ بها عينيه من ملامح وجهى.. و لهفة أُمى وهى توصينى وتشدد فى وصيتها أن آخذ حذرى وأهتم بنفسى وأراعى حوادث الطريق.. لم تكن وصية بقدر ما هو إحساس جارف يتملکها أنها تلقننى آخر كلماتها فى ساعاتى الأخيرة.. وقد أدركت الآن محاولة شقيقتى أن تبدو مرحة رغم نظرة الحزن التى تتملکها على غير العادة.. وتصريحها أنها تشعر بانقباض قلبها ولا تعرف سبباً لذلك.. وتلميحها أنها تخشى مكروها لأحد. فى العائلة أو الأسرة.. ونهى أُمى لها على هذا القول وطلبها أن تذكر الله وتنسى هذا الأمر وأن الله سوف يسترها ويسير كل شىء طبيعياً كالمعتاد.

استوقفتنى نظرة حسين شقيقى الأصغر وأنا أطبع قبلة على جبينه عند خروجى من المنزل.. فقد رأيت فى عينيه حيرة.. وعلى لسانه كلمات مكتومة.. وكأنه أراد أن يصرح بشىء يشعر به غير أنه لا يدرك معناه ولا يستطيع التعبير عنه.. فقد علق برفقتى على غير العادة

وشعرت بحرارة أنفاسه.. وسمعت دقات قلبه تتسارع.. غير أنى لم أدرك إحساس طفل ربما يملك حاسة سادسة حيال أحداث اليوم.

وصلت الكلية والتقيت عدداً من أصدقائي.. وأدركت منذ اللحظات الأولى أن هناك شيئاً غير عادى يحدث بالجامعة.. وأن حال طلابها ليس حالهم المعتادة.. فالكثير منهم يلتف حول أحد الزملاء ممن اشتهر عنه القيادة فى الجامعة ويستمعون له فى إنصات وإيماءات بالموافقة.. وتجمعات أخرى لكثير من الطلبة يحملون أعلاما وشعارات يلوحون بها استعدادا للخروج فى تظاهرة تنطلق الى خارج الجامعة.

وتجمعات فى كل مكان وتظاهرات تنطلق من كل كلية.. لتتجمع الحشود فى مسيرة ضخمة تجوب شوارع القاهرة وتلتقى مع مسيرات وحشود انطلقت من كل مكان فى أرض مصر وتوحدت معا لتشكل حشدا هائلا اتخذ طريقه زاحفا نحو ميدان التحرير وسط القاهرة.

إنه يوم ٢٥ يناير عام ٢٠١١م.. يوم الثورة المصرية العظيمة التى قام بها أبناء هذا الشعب للتحرر من العبودية وقهر الظلم والطغيان الذى قبح على صدورهم وكم أنفاسهم لعقود طويلة.. خرج أبناء هذا الشعب الأصيل فى مسيرات سلمية رافعين شعارهم «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية».

كنت قد قرأت منذ عدة أيام عبر مواقع التواصل الاجتماعى دعوات للحشد والتظاهر خلال هذا اليوم الذى تحتفل فيه الشرطة المصرية بعيدها.. وتقام فيه احتفالات كبيرة فى جميع محافظات مصر تمجيدا لذكرى الموقف البطولى للشرطة المصرية فى دفاعها عن محافظة

الإسماعيلية ورفضها تسليم أسلحتها للاحتلال البريطانى ومغادرة المحافظة إلى القاهرة.. وقرار رجالها البوازل الصومود يوم ٢٥ يناير عام ١٩٥٢م فى وجه مدافع الاحتلال.

ووقف ضباط وجنود الشرطة فى الإسماعيلية يدافعون ببسالة عن مبنى المحافظة غير مباينين بمدافع الإنجليز التى صوبت نيرانها نحوهم ليسقط أكثر من خمسين شهيدا ومئات الجرحى.. و لم يستسلموا ويسلموا أسلحتهم الخفيفة التى دافعوا بها وخاضوا معركتهم ضد مدافع جيش الاحتلال الفاشم حتى نفدت ذخيرتهم.

وقد اتخذ هذا اليوم عيدا للشرطة تخليدا لبطولة رجالها فى محافظة الإسماعيلية.. و تقام فيه الاحتفالات وتكرم الشرطة أفرادها الذين أبلوا بلاء حسنا فى واجباتهم.

قرأت وسمعت كثيرا عن هذه الدعوات للحشد والخروج فى تظاهرات يوم ٢٥ يناير مطالبة ببعض التعديلات الوزارية ورفع سقف الحرية وإعلاء شعار «عيش.. حرية.. عدالة اجتماعية».

غير أنى لم أدرك مغزى اختيار عيد الشرطة للقيام بهذه التظاهرات والمطالبة بالإصلاح.. وأرجعت ذلك إلى استغلال عيد الشرطة لضمان حيدة رجالها فى عيدهم ومحاولة كسب تأييدهم للمتظاهرين فى طلباتهم السلمية للحصول على حقوقهم الضائعة.. أو ربما أراد المتظاهرون أن يبلغوا رسالة لرجال الشرطة برفضهم احتفالاتهم لخروجهم عن مسارهم الوطنى والاجتماعى ووقوفهم مع سلطان جائر ضد شعبه وأبناء وطنه.. وجنوحهم عن مسار سلفهم من أبطال شرطة الإسماعيلية.

غير أنى لم أهتم كثيرا بالبحث عن السبب الحقيقى وراء اختيار هذا اليوم والدعوة للاحتشاد.. وكذلك لم يشغل فكرى الوقوف على حقيقة هذه الدعوات وهدف هذه التظاهرات.. فأنا لم أهتم يوما بالأمر السياسى ولم أكن من زعماء الطلبة الذين يأخذون على عاتقهم عبء حشد الطلاب للمطالبة بحقوقهم ويعرضون أنفسهم للملاحقات الأمنية.. وربما يتعرض مستقبلهم للضياع.. فقد كنت أرى ذلك دربا من دروب العبث والتضحية بلا جدوى.. وكان اهتمامى ينصب على حصولى على مؤهلى حتى تتاح لى فرصة عمل تمكننى من مساعدة أبى فى مشواره ورفع مستوى عائلتى المادى حتى نستطيع مجابهة متطلبات الحياة.. شأنى فى ذلك شأن كثير من طلاب الجامعة.

لذلك لم أهتم يوما بأمر السياسة والخوض فى دروبها والانضمام لأحزابها ورجالها.. وهذا لا يعنى أننى لا أعانى الأمرين مثلما يعانى الكثير من أبناء الطبقة المتوسطة فى هذا البلد.. ولكنى وعيت منذ نعومة أظافرى أن السياسة لا تدفع ظلما ولا تكسر قيادا أو تمنح حرية فى هذا البلد.

غير أنى أدركت أن الأمور فى هذا اليوم تختلف عما ألفته فى الأيام الماضية.. وهو ما دفعنى لمحاولة الإلمام بما يدور حولى واستبيان الدوافع الحقيقية لهذه التظاهرات التى احتشد لها آلاف من زملائى وملايين من أبناء وطنى.. فقد أدركت مما حولى أن اليوم لن يكون كغيره من الأيام المعتادة.. فهو يوم فارق فى حياتنا.. وفى تاريخ مصر.

انضمت إلى زملائى واستمعت لهم ولامس كلامهم قلبى ونكأ جروحا مازالت تنزف.. فالشعور بالظلم والقهر إحساس مؤلم وقاس.. وجميعنا

قد اجتاحه هذا الإحساس فى ظل نظام قبع على قلوبنا أكثر من ثلاثين عاما أذاقنا من القهر والجوع والمهانة ما أوردنا إلى ما نحن فيه .. وجعل بركان الغضب ينفجر فى صدورنا ويدفع بنا إلى رفع هذا الظلم والنيل من الظالمين.

مَثَلْتُ أمام عيني معاناة شقاء والدى .. ونظرات الحسرة تطل من عين شقيقتى .. وفقر ودين يلازمنا أيام حياتنا .. وقهر يملكنا .. وحياة فقدت آمالها وأحلامها .. فهناك ضياع العمل والأمل فى غد مشرق .. حرية مفقودة .. وسوط يلهب ظهورنا .. ولجام يكمم أفواهنا.

تفجرت فى قلبى ثورة لم أع وجودها وأفطن لهذه اللحظة الفارقة التى تنتظرها لتنتقل معبرة عما يجيش فى صدرى .. تلك هى الثورة المصرية التى بدت بوادرها هذا اليوم .. وانطلقت هادرة من قلوب كل المصريين .. ربما غابت بعض الوقت .. وحجبت تحت مسميات نعيشها عملت على محاصرتها ومحاوله وأدها فى مهدها .. وفى لحظة باغته يثور بركانها وينطلق لهيبها وتنفث حمم غضبها وتحرق كل ظالم جبار خيل له أنه تسيد هذا الشعب الحر وتفرعن مع كهنته واتخذوا من رعيتهم عبيدا يسوقونهم كيفما شاءوا .. هى ثورة الشعب المصرى ولحظة انطلاقها وتحطيم قيوده.

أدركت أن هذا اليوم هو يوم التحرر من عبودية هذا النظام .. يوم الكرامة واسترداد مصر بلادنا التى سرقت من بين أيدينا واحتلتها حفنة من الفاسدين .. نهلوا خيراتها وتقاسموا ثرواتها غير عابئين بأبناء الشعب المصرى الذين ينزحون تحت فقر مدقع ويعانون شظف العيش وهدر الكرامة.

ثار فى قلبى بركان الغضب وانفجر سخطه على نظام هذا البلد.. وأدركت أن الثورة تسكن داخلنا وأنا جميعا نسير بها.. تغلى فى صدورنا.. وتوقد عقولنا وتنتظر لحظة تنطلق بنا تدفعنا ونلوذ بها للوقوف ضد الظلم والطغيان دون أن ندرك سيطرتها علينا وتملكها قلوبنا.

خرجت مع زملائى من الجامعة على رأس تظاهرة كبيرة والتقينا عدد من التظاهرات التى خرجت من كل ربوع مصر.. وتوجهنا صوب ميدان التحرير حيث نقطة التقاء التظاهرات التى دعى إليها لنقف وقفة سلمية مطالبين بحقوقنا.. رافعين شعاراتنا.. نهتف معاً ضد نظام فسد وأفسد.. ونطالب بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية.. رافعين أعلام مصر خفاقة عالية ومعها شعارات ثورتنا ومطالبنا.

وما هى إلا لحظات قليلة حتى فوجئنا بطلقات الرصاص تنهال علينا من كل صوب وقنابل غاز تملأ الميدان و ضباب من سموم وخرائطم مياه.. وجحافل من قوى الظلام تعوق مسيرتنا وتحاول عرقلتنا ومنعنا من المطالبة بحقوقنا.. وتستخدم معنا أقسى أنواع العنف المباح منه وغير المباح.

لم تفل عزيمتنا أو نهاب رصاصهم.. أو ترهبنا قنابلهم.. واستمر تدفق حشودنا وسلمية مطالبنا وقد زاد إصرارنا فى انتزاع حقوقنا واختراق صوتنا لجدار الصمت حتى يصل إلى من بيده القرار .

وإمام إصرارنا على استكمال مسيرتنا وهتافاتنا الهادرة وإرادتنا القوية تهاوت قوى الظلام وحماة الطغيان وزلزلت الأرض تحت أقدامهم واهتزت عروش ساداتهم وتهاوت قصور طغاتهم.. فما كان منهم إلا أن

يحاولوا بكل ما أوتوا من قوة التمسك بما تبقى لهم ومحاولة المحافظة على النفس الأخير.. فعمدوا للتعامل معنا بكامل طاقتهم وقوتهم ورشقونا برصاص أسلحتهم وقنابلهم واجتاحونا بسياراتهم المصفحة.. واندلعت حرب بين إرادة شعب أراد أن يعيش ويقتنص حرите التي سلبت منه عنوة.. وجحافل ظلم وطغيان وفرعون وجنوده يملؤهم كبر وتجبر.

سقط المئات من أبناء مصر بين شهيد وجريح.. وسالت الدماء الذكية تملأ الميادين.. تمنحنا القوة والإصرار لاستكمال المشوار وإنجاز ما بدأناه.. وتقوى إرادتنا ويزداد تمسكنا بالمطالبة بحقوقنا التي خرجنا للحصول عليها.. وكلما سقط شهيد حملناه على أكتافنا وواصلنا مسيراتنا الهادرة ترهب جحافل الظلام.. وترعش أقدامه مما زاد من سعرتهم وبطشهم واستعمالهم الجائر لأسلحتهم للنيل من شباب هذا البلد.

ارتفع صوتي هاتفا.. ويردد خلفي أبناء وطني.. شعاراتنا.. أحلامنا.. آمالنا.. وشعور جارف يملكنا أن مصر عائدة إلينا.. وأن اليوم موعدنا.. وأنه يوم فارق في حياتنا ومستقبلنا.. ويلوذ الأمل في الأفق وأرى طائر الحرية يحلق.. وشعبا ينطلق محطما قيوده.. ومستقبلا واعدة ينتظر أبناءه.

في لحظة الانتصار.. تجتاحنا قوى الظلام.. دخان القنابل يملأ المكان.. وأزيز الرصاص يصم الآذان.. وطلقة غادرة تحطم ضلوعي وتنفذ إلى قلبي تفجيره.. وتسيل الدماء غزيرة.. تروى أرض مصر الطيبة.

تهتز الصور أمام عيني.. يترنح الجسد.. يتهاوى.. وصرخات خافتة أسمعها.. استغااثات.. وأصدقاء حولي يحملون جثماناً فانياً.. عليهم

يدركون جرحه وإيقاف نرفه.. وهم غافلون أن الإصابة قاتلة وإنها لحظاتي الأخيرة التي أودع فيها أرض وسماء بلدى.. ويتراقص قلبي الذبيح طربا على أنغام هدير أبناء وطنى وهتافاتهم بشعارات ثورتنا.. و مصر تحتضن أبنائها وقد نزعت قيودها وعبرت أبواب الحرية.

أرادوا أن يقتلوا الثورة فى قلوب أبنائها.. فأحيوها فى قلوب كل المصريين.. وخرج الملايين من أبناء الشعب المصرى فى قلب كل منهم ثورة على ظلم طغى وطاق بغى.. وأملا وحلم يتراقصان فى القلوب بات تحقيقهما وشيكا.. «وشعباً أراد الحياة.. فلا بد أن يستجيب القدر».

خلدت إلى سُبات عميق.. بعد أن تنفست نسيم هواء الحرية.. وتنطلق روحى إلى فضاء رحب.. وتغلق عيني تحتضن صورة أبناء بلدى وقد تكاتفوا وتلاحموا وأبهروا العالم من حولنا.. وبسمة رضا أغادر بها وطناً أحببته وأموت من أجل أن يحيا.

يخرج شعب مصر عن بكرة أبيه مودعا شهداءه وقد حُمِلوا فى نعوشهم وقد اصطفت صفوفًا طويلة تحملها الأكتاف.. يلتف حولها أبناء شعب طيب يجتاحه غضب وحزن على شباب خرج مسالما للمطالبة بحقوقه وحرية وأجيبوا برصاصات تصوب إلى رؤسهم وقلوبهم.

تحمل نعوشنا وسط أمواج من البشر.. وتحلق أرواحنا فوق ميادين الحرية.. وتختلط دموع المودعين مع زغاريد تنطلق تزف هذا المشهد الحزين.. وألمح أبى يتقدم المسيرة.. تنساب دموعه من خلف نظارته.. ويكسو وجهه حزن دفين.. يسير فى وداع ولده بخطى متثاقلة.. وقد دفن حلمه الذى طالما عقد عليه الأمل أن يحميه من غدر الأيام ويحمل عنه خطوبها ونوائبها.

وأرى أمى ترفل فى السواد وقد كساها الإعياء.. ولا تستطيع قدمها
أن تحملها فى مسيرتها الأخيرة معى.. وبكاؤها يصاحبه نحيب..
وحولها صُحبياتها يهدأن من روعها و يشدنن من أزرها.. وهى تنظر
إلى السماء تارة ويتعلق نظرها بالنعوش تارة أخرى.. ولسان حالها يقول
إنه ولدى وهذا يومه.. فهذا عمر أودعه.. أمل وحلم أفقدهما.. وديعة
غالية تسترد.

وبين المودعين شقيقى الأصغر حسين وقد حمل فى يده علما صغيرا
وبيده الأخرى شعأرا لثورتنا.. يخطو خطى ثابتة.. ونظرة ثاقبة للأمام..
وكانما يختزل حاضره ومستقبله.

ولكل ظالم غدار.. حذار من شعب جبار.. قاهر صليب وتتار.. أضاء
عصور ظلام.. فلا يغرنك صفاء بحر.. تموج فى أحشائه ثورة.. أمواجها
تقتلع.. ودواماتها تبتلع.

ألا يا نفس استكينى.. وارقدى فى سلام أيتها الروح الحائرة.. أمى..
أبى.. إختوتى.. أهلى.. أحبائى.. دماؤنا لم تذهب هباء.. وأرواحنا لمصر
فداء.. وإن أجدبت أرضها وتصحرت.. وملاً الشوك والصبار ربوعها
وصحراءها.. فدماؤنا تسيل غزيرة تروى حبات رملها تخصب طينها..
تبعث روحها وتستعيد عافيتها وتمتلئ ميادينها زهورا ورياحين.. وتعود
بسمة أهلها ويزدهر مستقبل شبابها.. فأرواحنا ودماؤنا رخيصة نقدمها
فداء لأمتنا وطننا مصر.

«تمت»

الهروب

الهروب

أدركت منذ اللحظة الأولى التى التقيتها بها أننى على مشارف مرحلة جديدة من حياتى أودع معها عمرا مضى وإنساناً عشته سنين طوالاً تعودته وتملكنى حتى صرنا مزيجا واحدا لا يفصل بيننا فاصل.. عمر قضيته أرتدى جلباب العقل والوقار.. تقمصته وعاشته وتعاملت بمنطقه وكأنه قناع أردت أن يرانى الناس من خلاله ويقر فى نفوسهم أننى هذا الكائن الآلى الذى يتحرك ويفكر وينفذ بديناميكية منظمة وحكمة لا يحيد عنها ولا يستطيع أن يتجاوزها.. وقد كدت أصدق نفسى أننى ذلك الشخص وتلك هى صفاتى.. وهذا مسلكى ودربى.

عشت حياتى حتى قارب العمر أن ينتصف.. وأصبحت بين الأصدقاء و الأهل ذلك الشخص الحكيم ذا العقل الرزين والفضيلة التى لا يعكر صفوها هبوب رياح أو انزلاق إلى هوى.. عشت هذا الإنسان و تداخل قناع الفضيلة ولباس الحكمة مع جلدى حتى أصبحت لا أستطيع نزعها أو إلقاءه بعيدا عن ذاتى.. حتى أيقن من حولى وكدت أصدق أننى ذلك الرجل.

حاولت كثيرا التحرر من ردائى و ترك ذاتى بلا أقنعة تجوب شوارع المدينة تتلصص وتعشق وترتكب حماقات وتدخل أغوار التجارب والنزوات.. لم لا وأنا أعيش فى مجتمع من الشياطين التى تتعامل مع الحياة باحتراف وقدرة فى التغلغل فى شعابها وأروقتهها.. وتحصد ملذاتها وخيراتها.. وأنا قابع فى مكاني برداء القديسين أشاهد شريط

الحياة ولا عيبها وهم يلهون ويغامرون ويقضون يومهم وليلهم يغتفون من سكرات الحياة وملذاتها ولا يسعنى سوى أن أعبس وأشبح بوجهى وأترفع عن أفعالهم وأقول فيهم ما قاله «مالك» فى الخمر.. ..وكأن هذا القناع قد تغلل إلى عقلى وقلبى فأصبح حاجزا بينى وبين الحياة وملذاتها.. وأقام من نفسه واعظا وقيدا يحوطنى ويعمل على للمتى عند ظهور بادرة خطأ أو هفوة من هفوات البشر التى تصاحب الإنسان وتجعله كائناً متفرداً عن غيره من الكائنات .

أكاد اليوم أجزم أنى لست ذلك الشخص الذى كنته منذ أيام قليلة.. فأنا جالس على شاطئى بحر مدينة حبيبتى الساحلية أنتظرها أن تأتى من خلفى كما تعودتها.. حيث نقضى معا إجازة قصيرة اقتنصناها من حياتنا الرتيبة التى نحياها وكل منا بعيد عن الآخر.. نطفئ معا لهيب حب اشتعلت جذوته حتى أطلق لغة الجسد وصرخاته.. ونعيش أوقاتنا نغترف من اللذات.. ونشوة اللقاء.. نتراقص معاً.. تتلاصق أجسادنا وتتباعد فى تناغم فطرى يزيد من وقعه وجاذبته عبقها الفواح.. وموسيقى تدب تسلب الأبواب وتترك الجسد بلا عقل.. يغترف من جنون العشق والرغبة.. وتشهد جدران شاليه الحب الذى تمتلكه على شاطئ البحر أجمل أيام عشتها.. وأمتع لحظات مررت بها.

ألقيت جانبي جلاباب الفضيلة.. ذلك الجلاباب البالى الذى صاحبنى عمرا كاملا حتى كدت أفنى وهو ملاصق جسدى.. وأقتلع قناعا آلنى كثيرا وقيدنى وكاد يدمى قلب.. وخشيت دوما نزع مخافة أن أقتلع معه ذاتى وفكرى.. غير أنى وجدت راحة وشفاء نفس وهدوءاً تملكنى..

وكأني في استراحة محارب.. عاش حياته يجاهد نفسه ويشق عليها حتى كاد يمزقها ويسلبها حريتها ويجعل منها أسير أفكار وعادات بالية عفا عليها الزمن.. وكأنها أساطير الماضي البعيد في حكاوى أمهاتنا وأجدادنا تروى لنا مع حكايات الشاطر حسن.. وأما الغولة.

تملكنى الخوف أن يصيبني الضعف وأحن إلى قيدي.. فأنا كعصفور أمضى حياته حبيس قفص ذهبي.. يشيع البهجة فيمن حوله.. وقلبه يتمزق في محبسه.. يغرد أعذب الألحان الممزوجة بالأسى والشجن.. يطرب لها السامعون.. وتملئ نفوسهم بهجة.. ظننا أنه يصدق موال الفرح.. ويظل هذا طالبا الحرية والانطلاق بعيدا عن حياة ليست حياته.. وقيدا أجم ملكاته.. والجميع منصرف لحياته.. لا يكلف أحدا نفسه عناء التفكير في هذا العصفور الضعيف.. ويتناسى الإنسان إنسانيته وضميره من أجل متعة النظر إلى عصفور يئن في محبسه.

خشيت أن أكون ذلك العصفور الذى قضى عمره باحثا عن الحرية.. وبين الحين والآخر يعمد نشر أجنحته ونقضها داخل قفصه.. وكأنما يُمنى نفسه بلحظة حرية.. أو انتظار هذه اللحظة.. ويحاول أن يعد نفسه لها ويؤكد أن أجنحته مازالت قادرة على حمله والابتعاد به عن هذا القيد الذى كاد يقضى فيه نحبه.

حاولت نزع قيدي وترك الماضى المقنع ولباسه البالى الذى كدت أفضى فيه وبنزوى معه عمرى.. قذفت بقناعى وجلبابى إلى عرض البحر حيث تتقاذفه الأمواج وتأخذه بعيدا.. وأخذت أنظر إليهما وهما يطفوان ويغوصان فى قلب الموج.. وكأنهما تجسيد لتمثال خيال المآة

«ذلك الكائن الهلامي الذى يخيف طيور الحقل التى تحاول النيل من المحصول فى أرضه قبل نضجه والقضاء عليه وترك قشوره بعد الفوز بلبه.. وقد تفتق ذهن الفلاح القديم وأصحاب الأراضى عن هذا الاختراع وجعلوا منه حارسا على أراضيهم وحامى محاصيلهم.. يقف وسط الحقل ينشر الرعب فى قلوب الطيور فى غزواتها المتكررة.. ويميل يمينا ويسارا مع حركة الريح فيدب الخوف والفرع فى تلك الطيور الصغيرة خشية أن تكون حركة إنسان يتوعدهم وينتظرهم للفتك بهم.

قفز «خيال المآتة» إلى ذهنى فجأة وأنا أرقب قناعى و جلبابى اللذين ظللت أرتديهما طوال حياتى وهما يروعاننى ويبثان الرعب فى قلبى بنظراتهما الحادة وعقابهما الوجدانى كلما ضُبط محاولا الاقتراب أو تجاوز خط المحرمات والممنوعات.

أطلت النظر إليهما ورمقتهما بنظرة تشفُ وأنا أراهما وقد أخذ الموج يبتعد بهما وهما يغوصان تارة ويطفوان تارة أخرى وكأنهما غريق يجاهد للبقاء حياً وسط أمواج عاتية لا تفيد معها المقاومة .

عمدت النظر إلى عين ذلك القناع المخيف الذى ملأنى رعبا سنين طوالاً وهو يصارع الموت.. فلم أجد تلك النظرة الحادة.. والوعيد الذى كان يتوعدنى إياه . ورأيت مكانهما نظرة استكانة وضعف.. وقناعاً ينازع أنفاسه الأخيرة.. ولم يعد يكثرث أو يبالي بشطحاتى وخطاياى.

نزعت القناع عن كاهلى كثعبان ينزع جلده فى بداية الربيع بعد فترة من بيات شتوى طالته به حتى كاد يظن أنه لن يفيق من نومته.. وها أنا أنزع عنى لباساً ضقت به وضاق من تمردي.. وافترقنا كل إلى

طريق.. ونظرة وداع غير نادمة.. بل نظرة أمل وتمنُّ بذهاب بلا عودة..
فقد أدركت الآن أنني أصبحت حراً.. وأزحمت عن كاهلى وصاية ضقت
بها طويلاً.

تذكرت عصفورى الجميل حبيس القفص الذهبى وعمر قضينا..
نتبادل معا نظرات ذات مغزى.. ولسان حال كل منا يقول للآخر..
كلانا فى القفص ذاته فمتى الانطلاق؟.

ها هي لحظة الحرية قد حانت.. فمنذ أن التقيت «كارمن» أدركت
على الفور أن القناع لم يعد يجدى وأن ما عشت أكابده على مدار سنين
حياتى آن له أن ينتهى.. ففى دقائق معدودة استطاعت كارمن أن تخلق
بداخلى شعوراً جديداً.. وأطلقت قوة كامنة ظلت مكبوتة على مدار عمرا
عشته أغالبها وأقهرها.. و نبضات حية لم أكن أدرك أن هذا القلب
الذى جفقت الأيام منابع عواطفه وأشواقه قادر على الخفقان والانطلاق
فى عالم حر لا تكبله قيود الماضى ولا يستمع لصوت عقل أو يأخذ بمنطق.
شعر الثعبان بالدفء بعد شتائه الطويل.. وركن إلى حضن يحتويه
ويضفى عليه من حرمانه زادا يقويه ويعينه على استمرار حياته بثوبه
الجديد.. ومواصلة رحلته التى توقفت فترة طويلة وكادت تنتهى به
إلى حيث يقبع فى مكانه.

التقيت كارمن صدفة لم أسمع لها.. ونم أقصد طريقها.. فكثيرة هي
صدف الأقدار التى تغير خطط حياتنا وتفجر مشاعر خافية.. تخلق
آمالاً وتوقظ أحلاماً.. تحرك الإنسان وتدغدغ مشاعره.. بل تقلب حياته
رأساً على عقب.

عرفت كارمن منذ نعومة أظافرنا.. فهي ابنة الحى الذى تربينا وترعرعنا فيه أطفالا ثم صبية وشباباً.. حتى فرقتنا الأيام وذهب كل منا إلى طريقه.. فقد عايشتها فتاة جميلة.. ساحرة العينين.. ممشوقة القوام.. لها نظرة لعوب تخترق العقول وتصيب القلوب.. فتستعر نارها وتتأجج حرارتها.. فقد كنت أكبرها بعدة أعوام تتيح لى إدراك مغزى النظرات واللافتات.. غير أنى كنت قد ارتديت قناعى منذ عهد بعيد.. فلم يتح لى أن أشارك شباب الحى إعجابهم بها.. والسعى لنيل رضائها.. ويبدو أنى كنت بعيدا عن خطتها.. وعمدت إخراجى مبكرا من عالمها وحياتها الزاخرة بالمحبين والمعجبين الذين تهوى قلوبهم فى حبها كفراشات تتهاوى فى نيران مستعرة غير مدركة أى مصير ينتظرها وأى حتف تلقاه.

أسرت كارمن العقول والقلوب وهى فى ريعان الصبا.. حتى باتت حلم كل شباب الحى.. وبات الجميع يسعى إليها يطلب ودها ويتمنى رضاءها.. ومع كثرة الفتيات الجميلات من جيراننا فى تلك المرحلة.. فإن كارمن تظل الزهرة البرية التى يفوح عطرها ويأخذ بالألباب جمالها.. ينتشر عبقها ويزداد بهاؤها ويزداع صيتها.. فهناك دائما فتاة تسلب العقول وتمتلك القلوب.. ويظل ما حولها وصيقات وهى مليكتهن المتفردة والمنطلقة فى سماء الحب تجتذب إليها عشاقها ومحبيها.. والكل يمنى نفسه بمنالها والفوز بقلبيها.

ويبدو أن كارمن كانت تدرك تفردا وأنوثتها الطاغية وتشعر بلسعات النظرات الخاطفة من شباب الحى وتعمل دائما على إشعال جذوة هذه

النظرات بدلال أنوثتها الطاغية ونداءات عيونها الناعسة.. وغمازات وجنتيها التي تضيء عليها جمالا وتزيدها جاذبية.

وقفت كما تعودت دائما فى صفوف المتفرجين.. لا أتقدم أو أحاول أن أكون مع أبطال لعبة الحب المبكر الذى يصيب القلوب الخضراء فيملؤها حياة وأحلاماً ويضفى على صاحبها نشوة وعذوبة.. وقد حاولت كثيرا النزول إلى أرض الملعب للمشاركة و اقتناص الفرصة والفوز بجائزة المباراة والشعور بلذة المنتصر. غير أن التراجع فى اللحظات الأخيرة كان حليفى.. وزجرة من قناع الخوف الذى أرتيده كانت كافية بإخراجى من الملعب والتفوق مع ذاتى والاكتفاء بالمشاهدة والتمنى .

مضت أيام الصبا على هذا النوال.. فتاة الأحلام أمامى ولا أستطيع الوصول إليها أو مبادلتها النظرات والكلمات.. ومطارحتها غرامى وأشواقى.. وهكذا استمرت الحال.. رغبة وتمنى يتملكاننى أن أفوز بها وأمتلك قلبها وجسدها.. وقناع زائف يقف حائلاً يبعد المسافات ويزيد الهوة بيننا.

تفرقت بنا السبل وذهب كل منا إلى طريقه.. تركت حبيبتى مدينتنا لتعيش فى مدينة مجاورة مع أسرته.. حيث عمل والدها الذى يقتضى التنقل كل بضع سنين من مدينة إلى أخرى.. وانقطعت أخبارها.. وكادت ستائر النسيان تحجب ذكراها إلا من بعض اللحظات التى تستدعى ذكر الماضى مع الأهل أو بعض أصدقاء الطفولة والصبا القليلين.

تزوجت وأنجبت.. وواصلت الحياة مشوارها معى.. أسير قناعى.. يلازمنى دوما.. حتى توحدت معه وأصبحت لا أدرى أى الشخصين

أكون.. فقد امتزج قناع الفضيلة والحكمة بنظراته الزاجرة وملاحمه القاسية.. بشيطان ذاتى الذى أراد أن ينطلق محطما أغلاله.. محررا معصمه من قيودا كبل بها وعاش تحت نيرها سنوات طويلاً.

وقفت حائراً بينهما.. فضيلة مرغم عليها.. وشيطان يتوعدنى بحياة حُرمت لذتها ومتاعها.. وكدت أتمزق بين طرفى نزاع يتنازعاننى... وأسير بينهما مسلوب الإرادة غير قادر على اتخاذ قرارى.

عشت حياتى ارتدى ثوبا غير ثوبى وأسكن شخصا غير شخصى.. تزوجت امرأة فاضلة حاولت قدر الإمكان أن أجمع فيها خصالاً أحببتها وسعيت أن أجدها فترة شبابى فيمن تمنيت عشقها.. تزوجنا زواجا تقليديا لم يتخلله حبا ولم تشعله أشواق.. فكان طريق حياة واستكمال مرحلة عمرية لا بد من إدراكها حتى أنخرط فى نسيج المجتمع وأصبح ترساً فى عجلته.. يقوم بعمله نهارا ويخلد إلى بيته ليلاً.. فى حركة دءوبة خالية من المشاعر التى تضى على الحياة نوعاً من التوهج والحيوية.

دامت العشرة بيننا وأنجبنا ثلاثة أطفال.. بنتاً وولدين.. عمدت أن أربيهم وأحسن تربيتهم.. واستعنت فى ذلك بقناع الحكمة والفضيلة الذى ساعدنى كثيراً فى الوصول بهم إلى أفضل سبل التربية والسلوك القويم.. والتحقت ابنتى الكبرى نيفين بكلية الطب التى أصرت على الدراسة بها لعشقها هذه المهنة الإنسانية التى ربما أكون قد زرعت فيها هذا الحب بقناعى الإنسانى دون أن أدرى.

ويواصل ابنى هيثم مشواره التعليمى فى كليته العسكرية التى التحق بها مجبراً بعد أن حاد به مجموع درجاته فى الثانوية العامة عن الكلية

التي يرغبها وكان يصرح دائما بأمنيته في الالتحاق بها حتى يستطيع الانخراط في السلك الدبلوماسي.. ويعيش حياته متنقلا بين بلدان العالم المختلفة.. ويشجع ميوله في السفر والترحال حول العالم.. وقد أدركنا جميعا انه قد اختار الطريق الخطأ بدخوله كليته العسكرية التي ربما أراد أن يتفاخر بزيها وهيئتها ولم ير فيها سوى هذه الميزة.. وعندما صدمه الواقع بمدى جدية العسكرية والتزامها.. أدرك أى خطأ وقع فيه.. ولكن بعد فوات الأوان.

وهشام ابني الثالث خط أولى خطواته في كلية الحقوق ليسير على نهج أبيه الذي ربما وجد فيه القدوة التي يقتدى بها وأراد أن يكمل مشواره على الدرب ويسير في الطريق نفسه.

عشت حياة طبيعية يحسدني عليها القاصي والداني.. حياة يملؤها الاستقرار بعيدة عن الهزات القوية التي تقتلع الكثير من البيوت الراسخة الأركان.. وعرفت بين الأهل والأصدقاء بالإنسان الجاد ذى الشخصية المتزنة صاحب الروح المرحمة.. وممن يرحب بوجودهم في المحافل الاجتماعية وتجمعات الأصدقاء والزملاء.. ووثق الجميع بفكرى وشخصى وأصبحت رمانة الميزان فى كثير من الجلسات والاجتماعات التي أحضرها أو أشارك فيها.

وظل القناع يلازمنى طوال مشوارى ولم يفارقنى إلا سويعات قليلة كنت أتحين فيها الفرصة وأغافله بفعل شيطانى أجد فيه ذاتى.. وأشعر بلذة الهروب والانفلات من رقابته.. وسرعان ما أعود مُسلما له مفتاح القيد وسائرا فى ركابه.

اعتدت حياتى تلك ورضيت بها إلا من بعض إرهاصات كنت أقوم بها من حين إلى آخر.. حتى التقيت كارمن بعد فراق دام أكثر من عقد ونصف ذهب كل منا إلى طريقه.. وعلمت أنها تزوجت وانفصلت عن زوجها ولم تدم بينهما الحياة طويلا لحبه الشديد لها وغيرته الزائدة عن حدها التى حالت دون استمرار الحياة بينهما فى ظل الشكوك التى كان يحوطها بها ونظرات الريبة التى تملأ عينيه من أفعالها وتحركاتها.. والرقابة الشديدة التى فرضها عليها حتى استحالت الحياة بينهما ولم تجد بداً من طلب الطلاق.. وتحقق لها ما أرادت بعد صراع طويل فى المحاكم انتهى لصالحها لتبدأ حياتها من جديد ومعها ابنتها التى خرجت بها من هذه الزيجة.. وتدور معها الأيام كما دارت معى حتى جمعتنا صدفة الأقدار.

ما إن رأيتها حتى أدركت أن هذه لحظة فارقة فى حياتى.. وأن مسارى سوف يتوقف عندها كثيراً.. وأدركت أنه قد آن الأوان أن أتحرر من هذا القناع الذى لازمنى عقوداً من الزمان.. و لاقت لحظة فراقه هوى فى نفسى.. أخيراً تحقق مرادى.. بعد محاولات كثيرة أردت نزعته والتحرر من قيده.. وكان وجود كارمن دفعة قوية للتخلص من هذا القناع وإلقائه بعيداً.. فما إن رأيتها حتى أعادت لى ذكريات العشق و الحب القديم الذى ظننت أنه قد انتهى وطويت صفحته.. فقد ازدادت نضجا وأنوثة.. وأعطتها تجارب الحياة خبرة ووعيا زادا من جاذبيتها ورونقها. تحدثنا معاً وتذكرنا أيامنا الأولى.. واستطاعت فى ثوانٍ معدودة أن توقظ فى قلبى مشاعر مضى عليها زمن وتبعث فيه شوقه وحنينه.

تذكرنا مراحل صباننا.. وذكريات الماضي الجميل.. وصارحتها
بحقيقة شعورى نحوها.. وترددى سابقا من الاعتراف بحبها.. وأمنية
قديمة أن أفوز بقلبها.. ودفء يجمع بيننا.. ونعيد زماناً مضى.
صادف هواى هواها وبادلتنى مشاعر دافئة أشعلت الحمى فى
جسدى.. اندفعت إليها بكل جوارحى وبشوق وعذاب السنين أرتمى
فى أحضانها.. أرتشف رحيق الحياة من شفيتها وأعيش سكرات الحب
ولذته.

سرعان ما تطورت العلاقة بيننا وانتقلت سريعا من مرحلة المشاعر
والأشواق إلى مرحلة أبعد من ذلك بكثير.. فقد شعرت معها أنى قد
حرمت من الدنيا ومتاعها وبوجودها قد وجدت ضالتي.. فوجدت أنوثة
طاغية تعانقنى و تحتضننى.. وجسدا يلهب خيالى.. أرتشف من رحيقه
وأنهل من ملذاته.

عشقت جسدها.. جحيم قبلاتها.. حرارة أحضانها.. ملامسة
شعرها.. تعبدت جمالها.. مليكتى هى وأنا معبودها.. تملكتنى
وجعلتنى أسير هوائها وسائرا على دربها.. فقد وجدت فيها ما لم أجده
فى امرأة غيرها.. أثارت الرجل فى داخلى.. وبنث الحياة فى جسدى..
فكنت أسيرها وعبدها.

أدركت كارمن بفطرتها الأنثوية ما يعتمل فى صدرى و ما أعانيه
من حرمان طال عهده.. وجفاف أصاب قلبى.. فألت على نفسها أن
تروى ظمئى.. وتغننت فى إظهار مفاتها وأنوثتها الطاغية.. وتصنعت
فى دلالتها وحسنها حتى ملكت جسدى وروحي وبتنا روحين فى جسد

واحد.. وتعالى صرخات الجسد.. وحرارة متقدمة.. لا تكاد تنطفئ
حتى تشتغل مرة أخرى.. يرويه نبع حنانها ورحيق قبالتها.. وبتنا لا
نفترق إلا لنجتمع مرة أخرى.. أتنفس هواءها وأحیی بخمرها.. وأصبح
الليل أنيسنا.. والعشق محرابنا.

أدرکت جوهر ذاتی.. لا قناع یزجرنی أو جلباب یرهبني.. ترکت
نفسی علی سجیتها أرتع فی بستان العشق وأنهل من ملذاته.. واستطاعت
کارمن أن تملك كل حیاتی.. سلبتنی أهلی ووجدانی.. ووجدت فیها
ضالتي ومنشدي.. وتحررت معها من قید ألهب معصمی وقید روحي..
أطلقتنی وطرت معها فوق سحیبات یملؤها الحب والعشق.. وترکنا
وراءنا أرضاً مجدبة کدت أموت فیها عطشاً.

اعتدت الذهاب إلى شاليه کارمن فی مدينتها الساحلية نرتشف
رحیق الحب ونروی ظمأ السنين.. ونذوب معا فی لحظات تتأجج فیها
حرارة الجسد.. علی نغمات هدير بحر تتلاحق موجاته.. وعاصفة
تضرب مياحه فتزید اندفاعه وجنونه.. نقتطع من العمر آیاما نقضيها
معا.. تنتهی سريعا وإن طالت بنا.. فالوقت معها لا تحسبه الثواني
والساعات فهو خارج الزمان لا یحده قید أو ميعاد.. وتقف عنده كل
الحسابات.

حب وعشق.. كأس وخمر.. موج وقمر.. معشوقتي کارمن.. تلك
هی لذة الحياة.. عشتها وجرفني تيارها.. وترکت نفسي طواعية..
تتقاذفني أمواجه.. مبتعدا عن شاطئ السكينة إلى خضم بحر الحب
تلفني دواماته وأنوب معها.. وتقدفني فی أعماقه حيث كنوزه ولآلئه.

تذكرت عصفوى حبيس القفص يوم أردت إطلاق سراحه و فتحت له الأبواب على مصراعيها وتركته يختار دروب الحرية والانطلاق بعيدا عن محبسه.. حيث حياته الطبيعية و فضاؤه الرحب و سماؤه الفسيحة.. ووقفت أنتظره وأرقبه عن قرب.. وهو يرمقني بنظرة تعجب واستفسار.. غير متيقن صدقي فى منحه حريته وحثه عليها.

مرت فترة من الزمن لا أدرى طاللت أم قصرت غير أنى أدركت ما يعتمل فى نفس عصفورى وهو يستهل أولى خطواته على طريق الحرية.. فقد بدا مترددا.. خائفا.. تائه النظرات.. ينظر يمينا ويسارا لا يدرى أى طريق يسلك وأى اتجاه يختار.. وأجنحته التى كان ينشرها فى قفصه ويفاخر بقوتها باتت ثقيلة لا تقوى على حمله خوفا من المجهول القادم الذى ينتظره.

قفز عصفورى قفزة سريعة ووقف على باب القفص وهو ينظر إلى نظرات خوف وريبة ولسان حاله يتساءل هل أنطلق حقا وأمتلك حريتى؟ وكنت أنظر إليه مشجعا ومحفزا ومودعا فترة قضينا معاً نشكو حالنا.. ونظرات بيننا معبرة يفهم كل منا مغزاها.. فكلانا أسير وكلانا نطلب الحرية.

بعد برهة من الزمان ينطلق عصفورى مودعا المكان وفاردا أجنحته تحمله الريح إلى حيث يريد.. تاركا وراءه قيذا كان حبيسه أعواما طويلة. أرقب تدافع الموج.. فى عرض البحر.. ونسمة هواء عليل تلاطف وجهى.. وأنا جالس على الشاطئ أنتظر كارمن أن تأتى من خلفى وتضع يديها على عيني كما تعودت أن تفعل منذ أن التقينا لتسألنى من أكون..

وأجيبها فى حب و حنان.. ثم نواصل يومنا فى ضحكاتنا وأحاديثنا
و أمواج هادرة وأشواق فى ذروتها تذيب أرواحنا.. و نلتقى جسدين
جمعهما الهوى وألقى بهما خارج الزمان والمكان حيث عالمنا الخاص
الذى نحياه بعيدا عن الدنيا وأرض الواقع.

وبينما أنا غائب عن العالم من حولى فى انتظار كارمن أن تأتى..
شعرت بيد تربت على كتفى.. وصوت صديق يوقظنى من غفوتى..
وملامة يحملها حديثه أننى تجاهلته وهو جالس على الشاطئ غير بعيد
عنى منذ ما يقارب الساعة ولم أبادله التحية والسلام .

فتحت عيني.. ودقات قلبى تتسارع تكاد تقذف به خارج صدرى
ولحظات تمر وأنا غير مدرك وجودى وحقيقة أمرى.. فقد شطحت
بخيالى بعيدا.. وعشت وهما تمنيته.. وانسلخت عن ذاتى لأشبع رغبات
مكبوتة.. وأطلق العنان لأحلام شيطانية.. وأفيق من غفوتى وأدرك
واقعى.

هاج البحر و علت أمواجه وأغرقت مياهه رمال الشاطئ حتى
طالقتى وبللت ملابسى.. عدلت من مكانى لأجمع رفات نفسى..
وبطرفة عين لمحت جلبابى وقناعى ملقيين بجوارى.. يرمقانى بنظرات
لوم وعتاب.. فأطرقت برأسى خجلا وتصيب عرقا وشعرت أننى بلا
ثياب وأنى قد تعريت وضُبطت متلبسا.. فسارعت من فورى أرتديهما
وأسير على عجل مبتعدا عن شاطئ الأحلام الذى أخذنى إلى حيث
أردت أن أهرب من ذاتى حتى أجد حياتى.. فأبى قناعى أن يتركنى
وأبيت أن أفارقه وكنت له أسيرا.. فلا أجد منه مهربا إلا فى خيالى.

سارعت أجر أذيال الخيبة والحزن.. وبقلب متصدع ذهبت إلى منزلى.. وولجت إلى غرفتي أشعل سيجارتي عليها تؤنس وحدتي.. وأستطيع أن أتمالك نفسي.. ألملم روحاً تنتظر الاحتضار.. وأدرك بركاناً يتنفس انفجاراً.. وأخذت أنفك دخاناً.. يحمل زفرات ملتهبة لنيران متأججة في صدري.

فتحت أبواب الشرفة علني أجد بعض الهواء الرطب ربما يطفئ لهيب حمى تستعري في جسدي.. وفجأة وجدت عصفوري أمامي وقد تدلت أجنحته.. وارتجفت أوصاله وقد أنهكه التعب وتغلغل البرد في جسده الصغير.. وبدت في عينيه نظرة انكسار..

وما إن رأى باب الشرفة يفتح حتى قفز مسرعاً إلى قفصه وولج بداخله.. وأخذ ينظر لي نظرات توسل.. وكأنما يطلب أن أغلق عليه بابه ولا أفتحه مرة ثانية.. ويهمس برسالة صامتة أن قد وجد ذاته وحياته في قيده ومحبسه.. وسرعان ما خلد إلى نوم عميق وكأنما ارتضى حياة الأسر واستكان لها.

نظرت له طويلاً.. ولسان حالي يخاطبه.. نم يا صديقي واسترح.. فكلانا حاولنا كسر قيودنا.. والهروب من ذاتنا وحياتنا والانطلاق إلى حيث الفضاء والحرية.. ولكننا قد اعتدنا هذا القيد وارتضيناها فلن يضيرنا شيء أن نستكمل معه حياتنا.. فقيودنا تكلبش أرواحنا ونفوسنا.. ولن نستطيع الهروب من ذاتنا.

«تمت»

رصاصة الرحمة

رصاصه الرحمة

اقتربت اللحظة التي انتظرتها طويلاً.. وعشت سنوات عمرى أحلم بها وأسعى إليها.. فبعد أيام قليلة سوف أقف أمام لجنة تضم عدداً من مشاهير نجوم الفن فى أكبر مسابقة للوجوه الجديدة على مستوى الوطن العربى.. وسوف أصدح بصوتى حتى يصل إلى القاصى والدانى فى ربوع مصر والعالم العربى.. وأملأ الدنيا غناء وطرباً.. وأثبت للجميع أن محاولتى الغناء فى الفترة الماضية نابعة عن موهبة حقيقية وإحساس مرهف بالكلمة.. وأننى أستحق أن أكون مع مطربى الصف الأول الذين يحلقون فى سماء الفن.

ها هى الفرصة تواتينى وسوف تستمع اللجنة إلى فنى وتقيم أدائى وتمنحنى إشارة خضراء للانطلاق إلى عالم الشهرة والمجد حاملاً معى خاتماً رسمياً من أكبر مسابقة فنية تمنح صك الأمان وتأشيرة الانطلاق. من فرط سعادتى بهذا الحدث وترشحتى للغناء فى هذا المسابقة جعلت من نفسى بوقاً لجميع من أعرفهم لإبلاغهم بموعد الحلقة الأولى ومشاركتى بالغناء على مسرح المسابقة أمام الحشد الكبير من المشاهدين.. وقد سعدت كثيراً بنظرة الدهشة فى عين الكثيرين.. والغبطة والسعادة التى بدت على أهلى وأصدقائى المقربين.. وبين الحين والآخر كنت أرى بعض نظرات الريبة فى عيون البعض وتشككهم.. غير أنى لم أبال بتلك النظرات ولم أضعها فى حُسابنى.. فالهدف أمامى أكبر وأعظم من بعض النظرات وما تحمله من حقد أو إعجاب.. فالأمر يتعلق بحلم حياتى

ومستقبلي.. وأمل سعيت وراءه عمرا بأكمله أعمل على تحقيقه والوصول إليه.. وحاربت كثيرا حتى أثبت لمن حولي أنني صاحب صوت مميز وأداء على قدر عالٍ من التميز .

تذكرت أياما بعيدة مضت منذ أن كنت أغلق على نفسي باب حمامي وأحاول تقليد بعض المطربين المشهورين.. وأعوام طويلة قضيتها وأنا جمهور نفسي.. أستمع إلى صوتي بمفردي محاولا اكتشاف مواطن الضعف والقوة والعمل على تجويده وتطويره.. وكما شعرت بتوهج الموهبة بداخلي أغلق باب حمامي وأظل أغنى وأغنى حتى ينتابني شعور الرضا والاطمئنان.

ولا أنسى يوم أن استمعت شقيقتي سحر إلى غنائى من خلف الأبواب عندما أخذتني الجلالة وارتفع صوتي مدندنا أعذب الألحان وأنا فى حجرتي متفردا مع ذاتي.. فقد تسلل صوتي إلى أذن شقيقتي ويبدو أنه قد لاقى استحسانها.. وأطربتها الأغاني التي كنت أشدو بها.. حتى إنها قد تحمست لى منذ هذه اللحظة.. و تبنتنى فنيا وعملت على تشجيعى ودفعى للغناء أمام الأهل و الأصدقاء وإخراجى من محراب الوحدة الذى كنت أعيشه.

غير أنى خشيت كثيرا من الإقدام على هذه الخطوة.. فقد تملكنى الخجل وخشيت أن يكون صوتى دون المستوى وألا يلاقى الاستحسان.. لذلك كنت أفضل أن أكون مطرب نفسي.. أغنى وأستمع لغنائى بمفردى ويكون حمامى مسرحى وإذاعتى.

لم يستمر الأمر طويلا فقد فُضِحَ سرى وعرف كل من فى البيت أنى أمتلك صوتا لا بأس به.. وأنى أغنى وأطرب مع ذاتى.. فعمد الجميع إلى

محاولة الاستماع إلى غنائى خاصة فى لحظات الجلالة التى تأخذنى وأنا أندن بمفردى فيعلو صوتى وأجهر بكلمات بعض الأغانى التى أحب أن أتغنى بها.

يبدو أن صوتى قد لاقى استحسان وإعجاب والدتى وشقيقتى خاصة أختى سحر التى حاولت مرارا وتكرارا أن تخرجنى من عزلتى وتوسع قاعدة جمهورى.. وأخذت تشجعنى وتثنى على صوتى حتى استطعت أن أقف أمام عائلتى أندن بعض الألحان التى كنت قد حفظتها ظهرا عن قلب فى مسرحى الخاص.. ويبدو أن صوتى قد نال إعجابهم ورأوا فيه بادرة طيبة و بعض العذوبة.. فأخذوا يشجعوننى ويشدون من أزرى محاولين الترويج لى على مستوى العائلة والأهل.. فى صورة من صور فخر الأسرة بأحد أبنائها فى ميزة وموهبة اكتشفوها تعطيه بعض الأفضلية عن أقرانه.. فكانت والدتى تباهى بصوتى أمام خالاتى وعماتى وتمدح فى قدرتى على الغناء بصورة تطرب الآذان وتبهج الروح .

استمرت الحال على هذا المنوال فترة ليست بالقصيرة.. أدعى للغناء أمام الأهل والأصدقاء.. ويطرب الجميع ويبدون إعجابهم بالاستماع لهذا الصوت الفطرى.

وكم كانت سعادتى وأنا أرى جمهورى وقد بدأ يتسع شيئا فشيئا.. وأرى نظرة الرضا فى أعينهم.. وزاد من سعادتى كلمات الإعجاب التى كنت ألقاها مع كل أغنية أشدو بها.

إلى هنا والمسألة تسير سيرا طبيعيا داخل العائلة والأسرة ولم يتجاوز صوتى هذه الحدود ولم يتسع مسرحى أكثر من بيوت الأهل والأقارب.

حرصت دائما على أن أستعين برأى شقيقتى سحر التى كانت أول من أكتشف موهبتى وشجعتنى على الجهر بها.. بل إنها حرصت على تشجيعى لتنمية هذه الموهبة بأن أحضرت لى بعض الكتب الموسيقية والفنية التى أستطيع من خلالها أن أتعلم الخطوط العريضة لفن الطرب والأغاني حتى يأتى اليوم الذى أعد نفسى له من الآن والتحق بإحدى الكليات الفنية التى تتيح لى دراسة الغناء وتجويده بصورة علمية وأكاديمية.

استطاعت سحر أن تأخذ بيدى وتضعنى على أول السلم الذى أستطيع من خلاله تحقيق أمنيتى.. فشقيقتى رغم كونها خريجة كلية الهندسة ولم تحصل على دراسة فنية أو موسيقية فإنها تمتلك أذناً موسيقية وحباً لدنيا الطرب والنغم وتستمتع إلى كثير من المطربين والمطربات وتندنن بأغانيهم بصوت عذب طروب.. غير أنها لم تفكر يوماً فى الاتجاه صوب هذا الدرب رغم ولها وعشقها للفن وأهله.

ويبدو أنها وجدت فى صوتى تعويضا لها عن اختيارها طريقا علميا ودراسة هندسية ورياضية بحتة.. فكانت تنطلق مع خيالها وأحلامها من خلال صوتى والأغاني التى أتغنى بها.. وحرصت على تشجيعى منذ اليوم الأول لاكتشافها موهبتى وعملت على دعمى والترويج لى فى كل مكان.. وكان فارق السن بينى وبينها يعطيها فى قلبى قدرا من الاحترام والتقدير تتساوى فيه مع منزلة والدتي.. فهى تكبرنى بأكثر من سبعة أعوام وقد تخرجت فى كليتها وافتتحت مكتباً هندسياً مباشر فيه عملها وتحاول أن تجتهد لتصبح مهندسة متميزة فى مجالها .

وتقضى الساعات الطوال فى عملها الميدانى وتأتى البيت مجهدة نتيجة هذا الجهد الكبير الذى تبذله.. ناهيك عن استكمال دراستها ومحاولاتها الدءوبة التعمق فى المجال الهندسى حتى تستطيع تحقيق أحلامها والوصول إلى غايتها وهدفها.

ويبدو أن وفاة والدى قد تركت أثراً فى سحر كثيرا وجعلتها إنسانة قوية قادرة على الاعتماد على نفسها وتحقيق ذاتها.. وقد آلت على نفسها أن تقوم بالدور الذى كان يقوم به والدنا.. وكثيرا ما كنت أرى فى عينيها نفس النظرة التى كنت أراها فى عينيه خاصة وهى تلقننى النصائح وتحاول أن تزرع الثقة بنفسى.. وقد استطاعت أن تسد الفراغ الذى تركه أبى بعدما توفاه الله خاصة بالنسبة لى فقد وجدت فيها البديل الذى يعيننى ويشجعنى ويقف معى فى المصاعب التى تقابلنى وتعمل جاهدة على أن تيسر لى الأمور وتضعنى على الطريق الصحيح.

ويبدو أنها قد استشعرت منى هذا الإحساس تجاهها.. وربما صادف هوى عندها فعملت على تقويته وجعله واقعاً وحقيقة ملموسة شهد بها الجميع فى العائلة وخارجها.

لذلك فقد كانت تربطنى بسحر علاقة خاصة تتجاوز الإخوة إلى علاقة أشمل من ذلك وأكبر بكثير.. فقد كانت تمثل لى الأهل والسكن والقوة التى تساندنى وألجأ إليها عند كل مصاب يصيبنى أو مشكلة تلم بى.

استطاعت سحر وهى طالبة فى الجامعة أن تهينى لى بعض الفرص للغناء أمام صديقاتها فى بعض المناسبات الخاصة التى كانت تجمعهم فى بعض حفلات أعياد الميلاد أو الاحتفالات البسيطة التى يقيمونها

فى منازلهن ويحضرها تجمعات من زملاءها وزميلاتها.. فقد كانت هذه اللقاءات أول عهدى بالعالم الخارجى وبداية لإحساسى الحقيقى بالمسئولية ودفعى للعمل على تدريب صوتى والارتقاء بفتى حتى أستطيع مواجهتهم والغناء أمامهم.. خاصة بعد أن سمعت بعض كلمات الإطراء والتشجيع من الكثير من زميلاتها فى هذه الحفلات الصغيرة.

فقد كانت سحر أساس الانطلاق وعاملاً كبيراً من العوامل التى ساعدتني على الدخول إلى عالم الفن ومحاولة الوصول إلى مرحلة متقدمة فى تطوير صوتى واحتراف الغناء.

كنت أشعر بسعادة تعمرنى عندما أرى البهجة فى عين والدتى وشقيقتى إيمان وأمل وهم يستمعن إلى سحر وهى تصف لهن إعجاب صديقاتها بصوتى وتعليقاتهن المشجعة وتنبؤات البعض منهن لى بمستقبل باهر فى عالم الغناء والطرب.. وكنت أشفق على والدتى وهى تحاول دائماً أن تتحدث عنى بلهجة الفخر والإعزاز أمام صديقاتها ومعارفها.. وكان صوتها يصلنى وهى تحدثهن وتفيض فى حديثها عن موهبتى وعذوبة صوتى.. وعمدت دائماً الاستماع إلى الأحاديث التى أكون بطلها حتى أرى ردود الأفعال ومحاولة منى لتقييم فنى من خلال معارفنا والمقربين للعائلة.. فأنا مازلت على أعتاب أول الحياة الفنية ويملأنى شعور بعدم الثقة.. وأتوق إلى كلمة تشجيع تزيد من ثقتى وتقوى من عزيمتى.

استطاعت سحر أن تفاجئنى وأنا ما زلت دون الخامسة عشرة بترتيب فقرة غنائية أكون بطلها على مسرح الجامعة فى حفل تقيمه أسرة الكلية

يحضره حشد كبير من الطلاب والأساتذة وعميد الكلية.. وقد كان هذا الحفل هو ميلادى الفنى.. حيث إنه اللقاء الأول مع جمهور حقيقى.. وغناء شبه احترافى يقام على مسرح أكاديمى ويشهده جمع كبير.

لا أستطيع أن أعبر عن شعورى فى هذه اللحظة التى أخبرتنى فيها سحر أننى أحد نجوم الغناء فى هذا اليوم وأننى سوف أشارك مجموعة من الطلبة والطالبات الموهوبين إحياء هذا الحفل.

تسارعت دقات قلبى وكدت أفقد وعيى من هول المفاجأة.. فأنا لم أهيئ نفسى لموقف كهذا ولم أتدرب على مواجهة جمهور بهذا الحشد.. ولم أغنَّ أمام ميكروفون طوال حياتى.

حاولت الهرب من هذا الاختبار وشعرت بضآلتى أمامه.. وأن الغناء فى هذا الحفل يعادل عندى محاولة الانتحار.. لذلك حاولت الفرار وادعاء كل الحجج والبراهين حتى أتمكن من الهروب من هذا الموقف العصيب الذى وضعت به دون أن أسعى إليه.. غير أن سحر قرأت أفكارى وأدركت أعذارى فأحاطتنى من كل جانب وحاصرتنى محاصرة لافكاك منها حتى أدركت أنه لا محالة عن الغناء فى هذا الحفل.. فاجتهدت لتدارك الأمر و السيطرة على انفعالاتى وترتيب أوراقى لخوض هذه التجربة الصعبة التى وضعت فيها دون اختيار.

حاولت أن أستعيد ثقتى بنفسى وأرتب أفكارى لجعل هذا اليوم ميلادا جديداً.. وأصبح موضع فخر لشقيقتى بين زملائها وأساتذتها فى الكلية.. ووجدت أن هذه فرصتى كى أرد لها بعض الجميل الذى طوقت به عنقى على مدار حياتى التى عشتها.

بدأت أنظر للأمور بصيغة الأمر الواقع وأن ما يحدث ما هو إلا تدابير
قدرية ويجب أن أستغل هذه الفرصة الحقيقية التي وضعتها الأقدار في
طريقي وأحاول أن أثبت لنفسي وللآخرين أنني فنان بحق وأن موهبتي
ليست ادعاء أو لهو مراهقين.

جاء اليوم الموعد وأمسكت بيد سحر وذهبنا معا إلى الجامعة ومفاصلى
ترتعد من الخوف ويبلل جبيني العرق ولا أستطيع تمالك أعصابى.. فمئذ
أن تركنا البيت وأنا أكاد لا أرى شيئاً أمامى ولا أسمع سوى دقات قلبى
تكاد تصم أذنى.. وكم من مرة تلعثمت فى حديثى مع سحر وهى تحاول
أن تشجعنى وترفع معنوياتى.. وتعثرت أكثر من مرة وكادت أسقط على
الأرض وأنا لا أرى تحت قدمى وكأنى مساق إلى موت بطيء وكل خطوة
أخطوها تقربنى من المقصلة التى سوف ألقى بها حتفى وتسلبنى حياتى.
ظلت هذه حالى حتى وصلنا إلى مكان الاحتفال.. و الجموع المحتشدة
داخل المسرح الكبير الذى يعج بالآف الطلبة والطالبات.. وتجمعات هنا
وهناك.. وتبادل تحيات وسلامات.. وكادت سحر تضع منى وسط
هذا الجمع الكبير من صديقاتها وأحاديثهن التى لا تنتهى.. غير أنها
أدركت وجودى وما أعانيه فعمدت إلى تشجيعى ببعض الكلمات..
وأخذتنى من يدى وسلمتنى لمسئول الحفلة والفرق الفنية وتبادلت معه
التحية وبعض كلمات الوصاية.. وتركتنى وذهبت لتصطف مع زميلاتنا
فى مقاعد المسرح.

أدركت الآن أنى أصبحت وحيدا بين هذا الحشد الغفير وأن الواقعة
قد وقعت وما كنت أخشاه قد حدث وأصبحت وجهها لوجه مع نفسى
ومع هذا الحدث الكبير.

وعلى عكس ما توقعت فقد شعرت بالثقة والقوة تملكني والقدرة على مواجهة هذا العدد الكبير والغناء وسطهم غير مبالٍ بشيء مما كنت أخشاه قبل.. وكأن ملاقات الموت أخف من خشية لقاءه.. فقد أدركت أن الوقوع في الحدث يخلق في الإنسان قوة تكافئ هذا الحدث بل وتُفوقه لتجعل صاحبها على قدر مساوٍ ورد فعل مكافئ لهذا الفعل.

سرعان ما بدا الحفل ببعض الأبيات الشعرية التي ألقاها أحد الطلاب ولاقت استحسان الحاضرين.. وتلتها بعض الفقرات الفنية والغنائية من بعض الطلبة والطالبات قوبل الكثير منها بالإعجاب والاستحسان والتصفيق.. حتى جاء دوري ووقفت على المسرح وأنا لا أكاد أرى أمامي.. غير أنني تماسكت ببعض الشيء وحاولت أن أبحث بعيني عن سحر بين الحاضرين وأنظر في عينيها كي أستمد بعض القوة التي تساعدني على اجتياز هذا الموقف العصيب.

ومع انتهاء المقدمة الموسيقية الصغيرة كنت قد تماكنت نفسي وبدأت في الغناء.. وبعد برهة صغيرة من مطلع الأغنية وكلماتها الأولى فوجئت بتصفيق الحاضرين وتشجيعهم.. مما زادني ثقة وأزال عن قلبي الرهبة.. فاندمجت في الغناء حتى أحسست أنني أحلق بأجنحتي في سماء الطرب.

ومع قرب انتهاء فقرتي تمنيت أن يطول بي المقام ولا أترك المسرح إطلاقاً وأظل أشدو على خشبته إلى نهاية العمر.. وما إن انتهيت من الغناء حتى دوى المسرح بتصفيق حاد استمر فترة ليست بالقصيرة.. ولمحت سحر بين الحضور تتلقى التهاني والإعجاب ويملؤها الفخر والسعادة بنجاحي وتأكيد موهبتي.

انتهى الحفل وتلقيت فيه الكثير من كلمات المديح والإعجاب التي ملأتني غبطة وسعادة و جعلتني أشعر أنى فى حُلْمٍ قد ابتعد بى عن أرض الواقع .. .وزادت سعادتي وأنا أرى الابتسامة تملأ وجه سحر وكأنها تتلقى التهاني بحصولها على جائزة مجهودها وتعبها سنين طوَالاً وهى تحاول تشجيعى وبث الثقة بنفسى.. وها هى تجنى وتحصد أولى نتاج عملها.

أدركت ومعى شقيقتى سحر أن مرحلة الهواية قد انتهت و يجب أن أتجه الاتجاه الصحيح نحو عالم الشهرة والاحتراف حتى أصل إلى ما أبغيه وأنول ما أتمناه.. وقد حاولت سحر بعد ذلك ترتيب بعض الحفلات المماثلة واستطعت أن أثبت قدراتى وأؤكد موهبتى وأنول إعجاب جمهورها....و حاولت من جهتى استغلال بعض الفرص القليلة فى بعض المناسبات للغناء بها ومحاولة الانتشار عن طريقها.. غير أنه رغم كل هذه المحاولات فإنها لا تعدو سوى محاولات هواة لا تصنع نجماً ولا تقدم فناً.. فجميعها حفلات مقصورة على الأهل والأصدقاء وعدد قليل من المعارف والأحباء.

لذلك حاولت كثيرا ومعى سحر طرق أبواب النجومية ومحاولة الوصول إلى من بيدهم القرار ومفاتيح الشهرة.. غير أن محاولتنا باءت جميعها بالفشل وصدت جميع الأبواب فى وجوهنا.. فهذا العالم يختلف عن عالمنا وابتعد عنا كثيرا ولا يوجد من يوصلنا إليه ويفتح أبوابه أمامنا على مصراعيها أو حتى فتحة مواربة نستطيع الدخول والإيلاج منها إلى حيث هذا العالم الفسيح والشهرة الواسعة.

كاد اليأس يصيبني من احتراف الغناء والوصول إلى عالمه.. لذلك قررت أن أسلك الطريق من بدايته.. فالتحقت بمعهد فنى يتيح لى الدراسة الأكاديمية حتى أستطيع أن أثقل موهبتى وأتعلم أصول الغناء الأصيل الذى يضعنى على بداية الطريق الصحيح .

وتناسيت بصورة مؤقتة عالم النجومية لما لاقيته فى سبيل الوصول إليها من إحباط كاد يصل بى إلى حالة من اليأس مع شقيقتى سحر التى وقفت بجانبى فى كل خطواتى وحاولت جاهدة أن توظف خبرتها ومعرفها فى الوصول إلى مفتاح هذا الطريق دون جدوى.

وذاث يوم حدثت المعجزة دون أن نرتب لها أو نسعى إليها.. فقد اتصل أحد أساتذة سحر وأبلغها بوجود مسابقة للأصوات الشابة على مستوى الوطن العربى ويتقدم لها العديد من المطربين والفنانين على اختلاف نوعياتهم وتصنيفاتهم.. ويتم اختيار الفائز منهم ليمثل البرنامج.. ويتبنى القائمون على هذه المسابقة موهبته حتى يصلوا به لعالم النجومية.. وأخبرها أستاذها أنه على معرفة بأحد المسئولين عن هذا البرنامج وقد ضرب لنا موعدا لمقابلته والتنسيق معه للاشتراك فى هذه المسابقة على أمل الفوز والانطلاق إلى عالم الشهرة.

فاجأتنى سحر بمكالمة أستاذها والموعد الذى حدده لنا مع صديقه مسئول المسابقة.. وتذكرت معها إعجاب هذا الأستاذ بما قدمته من غناء على مسرح الجامعة عندما كان مسئولاً عن هذه الحفلات وقراتها المختلفة.. غير أنى تلقيت حديثها وأنا فى حيرة من أمرى ويكاد الشك يملؤنى.. وخشيت أن يكون إحدى دعابتها معى.. غير أنها أكدت لى

مقولتها وطلبت منى الاستعداد للذهاب للمقابلة وتقديم طلب الاشتراك
وملء الاستمارة الخاصة بالبرنامج.

اجتاحتنى مشاعر متباينة وأنا أستمع إلى سحر.. فقد أحييت بداخلي
أملاً كاد يلفظ أنفاسه.. وأحلاما كدت أستيقظ منها.. فقد تركت منذ أمد
بعيد طريق البحث عن النجومية وقنعت بدراستى وحفلاتى القليلة التى
أحييها للأهل والأصدقاء.

حاولت أن أتمالك نفسى وأستوعب الموقف والأمر الواقع.. فما هى
الفرصة التى انتظرتها كثيرا تأتىنى دون سعى منى أو مجهود.. وكان
القدر أراد أن يتصالح معى.. ويقدم لى ثمرة جهدى عن الأعوام الماضية..
وما على سوى العمل بجهد والتدريب المستمر والاجتهاد ليل نهار حتى
لا تغفل هذه الفرصة من يدي وأهوى إلى بئر لا قرار لها.

انتابنى شعور قوى أن الله أراد بى خيرا وما دامت فرصتى قد جاءتنى
دون أن أسعى لها.. فهى إذا وعدة تواعدتها وسوف أنالها وأفوز بها..
وأحقق حلما ظللت أحلم به.. وأملا ظل يراودنى سنين طوالاً لم يغيب
عن مخيلتى لحظة واحدة وكان ملازماً لى ليل نهار.. غير أنى قد عدمت
الوسيلة لتحقيقه وخانتنى الحيل فى الوصول إليه.. وما هو الحلم يتحول
إلى واقع والأمل أراه بين يدي.. وما على إلا أن أمد له يدي لأحصل
عليه.. ومن ثم تلمع نجوميتى وتجتاز شهرتى الوطن العربى من محيطه
إلى خليجه.. وربما تبتعد أكثر من كذلك وأصبح مطربا عالميا تتحدث عنه
شعوب العالم وتباهى مصر به الأمم.. لم لا وقد جاءتنى الفرصة التى أحلم
بها وانتظرها.. وبانت على قيد خطوات قليلة منى.

حاولت أن أفيق من أحلامي التي ارتفع سقفها واتسع فضاؤها حتى طالت عنان السماء.

ذهبت مع سحر إلى حيث المكان الإدارى الخاص بهذه المسابقة.. وقابلنا المسئول الأول عن البرنامج.. وبتوصية أستاذ شقيقتى سحر اجتزت جميع الاختبارات وتم اختياري ضمن المتسابقين فى هذا الكرنفال الفنى الكبير الذى ينتظره الوطن العربى بأكمله.. وتركنا المكان والفرحة تغمرنا غير مصدقين اجتياز خطوات الوصول إلى هذه المسابقة بهذا اليسر وتلك السهولة. كدت أفقد صوابى من الفرحه والسعادة التى تملكنتى.. وأحسست أنى طائر يحلق بجناحيه وينظر للأرض من فوق السحاب.. فيجدها صغيرة وقد ضمها إليه بنظرة عينيه.. وأصبح قادرا عليها وعلى امتلاكها وضمها لحوزته.

تمالكت سحر أعصابها بسرعة.. واتصلت بأستاذها تشكره وتخبره بما حدث.. وتطلب منه دعمنا فى المراحل التالية حتى الوصول إلى بلد المسابقة الذى سوف يجرى فيه المفاضلة بين المتسابقين واختيار الفائز فيه.. ولم تنس سحر أن توجه لى بعض النصائح وتشحذ همتى لبذل الجهد حتى أستطيع استغلال هذه الفرصة التى واتتنى دون حساب . عكفت سحر على وضع الخطط ومحاولة تنظيم أمورى فى ضوء المواعيد التى بلُغنا بها من مسئولى هذه المسابقة.. وتحدثت معى فى عُجالة واستعرضت رءوس المواضيع التى يجب أن أضعها على رأس أولوياتى.. ووعدتنى بمحاولة التفرغ لى فى المرحلة القادمة حتى نستطيع معا وضع الخطط والترتيبات اللازمة قبل السفر الذى قارب موعده.

تملكنى الزهو بنفسى وأحبيت أن يشاركنى الأهل والأحباب سمادتى
وكان أول ما تبادر إلى ذهنى وأنا أستعد للسفر إلى البلد العربى الذى
يستضيف هذه المسابقة أن أخبر جميع معارفى وأصدقائى باشتراكى
فى تلك المسابقة وكأنى أطلب منهم أن ينتظروا مولد نجم.. سطع ضوءه
وقارب أن ينير سماء الفن والأغنية العربية.

سافرت ومعى شقيقتى سحر بعد أن تفرغت لى تماما خلال الفترة
الماضية وتركت أعمالها و مشاريعها.. وأصبحت قضيتها الوحيدة خلال
هذه المرحلة.. و أخذت على عاتقها الاهتمام بى وتنظيم برنامجى
ومحاولة بث الثقة بنفسى.. وكانت يد العون لى فى كل خطوة أخطوها
ومظلة الحماية التى أستظل بحمايتها.. وأستقى منها القوة والأمان.

انخرطت فى النظام اليومى لبرنامج المسابقة وعشت مع المتسابقين
أياماً عصيبة نتدرب معاً مع الفرق الفنية من موسيقيين وملحنين وأساتذة
على قدر عالٍ من الاحتراف.. لمحاولة مساندتنا وتشجيعنا واختيار ما
يتناسب مع إمكانياتنا الصوتية والفنية من الحان وأغانٍ والتدريب عليها
حتى نؤديها أمام اللجنة ونستطيع أن نجتاز بها اختباراتهم ونصل إلى
غايتنا المنشودة.

مرت الأيام سريعة ونحن فى تدريب مستمر ونظام عمل قاسٍ يتخلله
بعض الأوقات التى تشهد انفراجة وقليلاً من الضحكات والمواقف
المضحكة من بعض الزملاء الذين يتمتعون بروح الفكاهة والدعابة وقد
استطاعوا أن يخففوا من حدة التوتر الذى يلازمننا.. وعملوا على إذابة
كثير من الفوارق بين المتسابقين خاصة إننا من بلاد وثقافات مختلفة.

دارت عجلة الأيام سريعة وحانت اللحظة المنتظرة.. ولا أدري هل
حُسن الطالع أم سوء حظى قد أوقع فقرتى فى اليوم الأول من المسابقة
وكنت على رأس القائمة وفى طليعة المتسابقين الذين سوف يؤدون أمام
لجنة التحكيم.

علمت مسبقا أن لجنة التحكيم تتكون من خمسة فنانيين أحدهم فنان
كوميدى مصرى والأربعة الآخرون من دول عربية شقيقة.. وهم: ممثل
تراجيدى.. ومطربة عربية كنت أستمع إلى أغانيها وأنا طفل صغير
وما زالت فى قمة عطائها ونضجها الفنى.. وفنانة عربية شابة من بلد
شقيق عرفت بأغانيها الخفيفة وروحها الجميلة.. ويعشقونها ويحبها
كثير من المصريين وشباب الدول العربية.. وكان العضو الخامس أحد
الملحنين الذين لا أعرف عنهم الكثير.. وهو نفسه غير معلوم لى ولم أسمع
له أى لحن سابقا ربما جهل منى أو أن ألحانه غير منتشرة أو معلومة.
كنت أحمل عبئا ثقيلا وأنا أعلم أن الوطن العربى بأكمله ينتظر
مشاهدة هذه المسابقة.. ويقوم مواطنو كل دولة بتشجيع المتسابقين من
أبناء بلدهم.. وتتعالى دقات قلبى كلما استحضرت الحشد الكبير من
الأهل والأصدقاء الذين ينتظرون فقرتى وغنائى فى هذا المحفل الكبير..
والكثير منهم يتمنى لى النجاح ويраهن عليه ويحبس أنفاسه حتى أكون
فى المصاف الأول من المتسابقين.. والبعض القليل يتمنى الفشل كنوع
من أنواع الحقد والبغض الذى يهيمن على ضعاف النفوس إذا صادف
النجاح شخص تربطهم به معرفة وكاد يختطفه بعيدا عنهم ليضعه فوق
مرتبة أعلى ومكان أوفر حظا.

· وضعت كل ذلك فى حساباتى بالإضافة إلى هذا الجمهور الكبير الذى جاء من كل الأقطار العربية لحضور هذا العرس الفنى.. غير أنى لم أكن أخشى رأى اللجنة.. ربما عن ثقة ملأت نفسى من الإطراء الزائد الذى استمعت إليه فى كواليس المسابقة.. وكذلك الثناء والإعجاب الشديد الذى كنت ألقيه فى المحافل التى أديت بها.

حانت اللحظة الحاسمة ودعيت للوقوف بين يدي اللجنة المنعقدة.. وجمهور كبير يملأ القاعة.. وقد اصطففت الفرقة الموسيقية وبات المسرح مجهزاً ومعداً للغناء.

وقفت على المسرح وأمسكت الميكروفون وبدأت الفرقة الموسيقية عزفها.. وبدأت أغنيتى.. ورويدا رويدا بدأ تفاعل الجمهور مع لحن الأغنية.. ووصلت إلى أذنى كلمات الإعجاب والمديح وسط التصفيق والتهليل مما زاد من ثقى بقنى وأدركت أنى قد أجدت الغناء وأحسننت الأداء.. فملت وتمايلت وطربت وأطربت.. واستجاب معى جمهور القاعة بعدما تسلطنت مع كلمات الأغنية واندمجت مع لحنها حتى نسيت مكانى وزمانى وعشت لحظات من أحلى لحظات حياتى مع تفاعل الحضور وتشجيعهم المنقطع النظير.

انتهت الأغنية وسط تصفيق حاد واستحسان كبير فامتلاً قلبى فرحة وروحى بهجة وأملاً.. وانتظرت رأى اللجنة حتى تكتمل فرحتى وتكمل سعادتى وأنتقل للمرحلة التالية من المسابقة.

تحدث كل عضو من أعضاء اللجنة وأسرد فى التفاصيل ناقدا تارة ومشجعا تارة أخرى.. حتى إنى شعرت أن كل عضو من أعضائها

يتخذ من مكانه منبرا لتقديم ذاته واستعراض ثقافته وتقديم نفسه كنجم النجوم.. حتى إنه فى بعض الأحيان يصاحب تعليقاتهم بعض كلمات الاستطراف وربما استخدام بعض التعبيرات الجارحة.. وكأن من يقف أمامهم حيوان تجارب استباحوا لأنفسهم إجراء عملياتهم وتجربة انتهاكاتهم على دون أن يحرك ساكنا أو يشكو ظلماً وقع عليه.

ظللت على هذه الحال أكثر من عشر دقائق مرت على وكأنها دهر كامل.. فقد أدركت أن الأمر ليس بالسهولة التى توقعتها وأن لجنة التحكيم ليس لديها مقياس موحد للحكم على المتسابقين.. وأنه ربما تأخذهم أهواؤهم الشخصية فى أحكامهم وقراراتهم .

حانت أخيرا اللحظة التى سوف تحدد مصيرى والتصويت على حياتى أو موتى.. فكلمة واحدة كانت كقيلة ببعث الروح أو نزعها من جسدى.. وبقدر ما كنت أنتظر قرار اللجنة ويجتاحنى الخوف وتلهث أنفاسى ويكاد قلبى يتوقف.. كان أعضاء اللجنة فى وإد آخر يتبادلون النكات والتعليقات والاستطراف أحيانا.. وكان هذه المسابقة خصصت لإظهار مهاراتهم ومواهبهم ومدى ما يتمتعون به من ظرف وقدرة على التهكم.

بدأت اللجنة فى أخذ الأصوات واستطعت أن أحصل على الصوت الأول.. ثم حصلت على الصوت الثانى وسط فرحة أبناء بلدى وتشجيعهم.. وبدأ قلبى يتراقص فرحا مع اقتراب النتيجة لصالحى.. ولكن سرعان ما تنقلب الحال وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن.. فقد صوت عضو اللجنة الثالث والرابع بالسلب.. وبذلك أكون وصلت إلى

مرحلة التعادل فى الأصوات فقد كسبت صوتين مقابل خسارة صوتين..
وبقى الصوت الخامس ليرجح أى الكفتين تميل.

كاد قلبى ينخلع وأنا أنتظر رصاصة الرحمة أن تنطلق لترحمنى من
هذا العذاب الذى أعانيه.. وذلك الموقف الذى كاد يقضى على ما تبقى
من أعصابى ويصيبى بسكتة قلبية تودى بحياتى.

صمت تام خيم على الحضور فى القاعة وانتظر الجميع قرار العضو
الخامس فى اللجنة.. ورأيتها تنظر يمينا ويسارا وتتحدث بعض كلمات
لم أسمع منها شيئا.. وتبادلت ضحكات مع باقى الأعضاء ولسان حالها
يقول صوتى هو الأهم و الفيصل فى هذه الفقرة.. وتعالى الضحكات
والقفشات.. بينما أنتظر القرار وأنا متصدع الروح مسلوب الإرادة يتميل
العالم من حولى يمينا ويسارا وتتأرجح الأشياء أمام عينى وقد كدت
لا أرى شيئا أمامى و طغت دقات قلبى حتى أصمت أذنى.. وهاج
«الأدرينالين» ليزيب الأشياء أمام عينى ويملاً الخوف كيانى.

توجهت جميع الأنظار إلى العضو الخامس وهى تعلن قرارها وتطلق
رصاصتها القاتلة لتنزع منى الحياة بانضمامها للأصوات الراضة..
وأخسر الرهان.. وتصدر لجنة التحكيم حكمها بالفشل وتضع نهاية
وحدا لآمالى وطموحاتى.

أسير مبتعدا عن المسرح.. أجر أذبال الخيبة والألم.. وقد تفاقمت قدمى
وكأنهما جبل راسخ فى باطن الأرض.. ولا أدرى عن نفسى شيئا بعدما
غيبت المفاجأة وعيى وحببت عقلى.. وانتابنى بكاء عميق.. منعى أن
أستمع إلى كلمات المواساة ممن حولى ومحاولتهم تقليل وقع الصدمة والكارثة.

للمت أشيائى وغادرت بلد المسابقة ورجعت إلى مصر برفقة شقيقتى
سحر التى حاولت أن تخفف عنى آثار الصدمة وترفع من معنوياتى
حتى أتأهل للقاء الأهل والأصدقاء.. غير أنى أيقنت أن ما حدث هو
نهايتى.. وأن فشلى الذريع الذى شاهده العالم على الهواء مباشرة قد
جعلنى أضحوكة وقضى على أحلامى وطموحاتى للأبد.

حاول الأهل والأصدقاء مواساتى.. ووقف الجميع بجانبى.. ورأيت
فى عيونهم نظرات الحب والمودة.. ومشاركتى إحساسى بالظلم أمام
هذه اللجنة التى كانت تحكم بالهوى بعيدا عن كل المعايير الفنية..
وعمل الجميع على بث الثقة بنفسى لاستكمال المشوار انتظارا لفرصة
ثانية ربما قد تتاح.. غير أنى كنت قد اتخذت قرارى بالابتعاد نهائيا
عن دنيا الفن والغناء.. ومحاولة إيجاد عمل بعيدا عن هذه المهنة التى
دُفعت فيها بالفشل أمام الملايين.. ووقعت شهادة وفاتى من لجنة
خماسية يفترض أنهم على قدر من العلم والمعرفة.

تمر الأيام والشهور وكدت أنسى هذه التجربة المريرة خاصة بعد
أن تركت الغناء وانتقلت من المعهد الذى أدرس فيه إلى كلية أخرى لا
تمت للفن بصلة وتبعد عنه كل البعد.. وقد بذلت سحر معى محاولات
مستميتة لتزيل آثار هذه التجربة وتعيدنى إلى سيرتى الأولى.. وشاركها
فى ذلك أسرتى وأصدقائى المقربون.. واستمرت محاولاتهم لتشجيعى
ودعمى لمواصلة مشوارى الفنى وإثنائى عن موقفى الذى اتخذته لإيمانهم
العميق بموهبتى وقدراتى الفنية.. غير أن جميع محاولاتهم ذهبت هباء
أمام إصرارى على موقفى وعدم تراجعى عنه.

استيقظت ذات يوم وشعور بطاقة من الأمل والتفاؤل تملأ نفسي..
وهدوء يلفني وراحة تنتابني.. كصفاء بحر بعد أمواج هادرة ضربته أياما
طويلة.. وقضيت يومى صافى الذهن منتعش النفس حتى إنى أخذت
أدندن بعض الألحان التى كنت قد نسيتها منذ زمن طويل.

قمت بأخذ حمامى.. وبينما رذاذ الماء يتساقط على وجهى وكأنه
يزيح حزنا وهما تراكم على مدى الأيام الماضية.. انطلقت أغنى وأصيح
بأعذب الألحان.. حتى طربت وتمايلت مع كلمات الأغانى.. واستشعرت
عذوبة وحلاوة هذا الصوت... وهاتفنى هاتف داخلى أن هذا هو
انطلاقى الحقيقى.. فالنجاح يبدأ من الداخل وهما أنا أوقن بنجاحى..
ولن أترك حياتى لقرارات لجان تصدر أحكامها بالفشل والنجاح..
..فذاتى وموهبتى تقرران مصيرى.. وأنا أشعر بهذه الموهبة وأعرف
قدرها.. فقد اكتشفت نفسى منذ عهد بعيد وأنا أغنى فى هذا الحمام..
وهما أنا أعاود اكتشاف نفسى والانطلاق من جديد من ذات الحمام لأحقق
حلمى وهدفى بعيدا عن قرارات ورسايات قاتلة تطلقها لجان.. ربما
يغلبها الجهل أو تغلبها الأهواء.

«تمت»

المؤلف فى سطور

الكاتب / نصر سليمان محمد

أديب وكاتب حر فى عدة مواقع لصحف مصرية :-

- صحيفة اليوم السابع.

- صحيفة الشروق.

- صحيفة صدى البلد.

- صحيفة المساء.

- صحيفة صوت الحياة.

- صحيفة صوت الشارع.

- يعمل فى تحرير صحيفة قبس السعودية.

- عمل فى قناة العقارية بدبي.

- عمل فى صحيفة الرأي العام.

- عمل فى صحيفة الحياة.

الفهرس

الصفحة

٣	إهداء
٤	مقدمة
٥	الجزء الأول
٦	بداية بلا نهاية
٧	الفصل الأول
١٥	الفصل الثاني
٢٤	الفصل الثالث
٣٣	الفصل الرابع
٤٣	الفصل الخامس
٤٩	الجزء الثاني
٥٠	مارد الأسفلت
٦٧	رسالة شهيد
٨٥	الهروب
١٠١	رصاصه الرحمة
١٢٢	التعريف بالكاتب

رقم الإيداع	٢٠١٤ / ٣٥٠٧
الترقيم الدولي	ISBN 978-977-02-7951-9

١ / ٢٠١٣ / ٢٠٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)